

خالد الخميسي

تاكسي

حواديت المشاوير

Mind Vision



دار الشروق

كلام له علاقة بالكتاب

نزلت السيدة العذراء، حاملة يسوع بين ذراعيها، إلى الأرض لزيارة دير. وقف الرهبان، شديدي الفخر، صفًا لتكريمها. ألقى أحدهم قصائد، أخرج لها آخر كتابًا مقدسًا مزخرفًا، وعدد آخر أمامها أسماء القديسين.

في آخر الصف وقف راهب متواضع لم تتح له فرصة الدراسة مع حكماء زمانه، كان أبواه من البسطاء العاملين في السيرك. عندما وصل دوره أراد الآخرون إنهاء مظاهر التكريم خوفًا من الإساءة إلى صورة الدير، لكنه أراد هو أيضًا إظهار حبه للعذراء، فأخرج من جيبه، محرجًا، وشاعرا بنظرة إخوته المستهجنة، بضع برتقالات وأخذ يرمي بها في الجو ويلتقطها مثلما علمه أبواه.

عندها فقط ضحك يسوع، وصفق بيديه فرحًا، مدت العذراء يديها إلى ذلك الراهب وعهدت إليه بطفلها لبعض الوقت.

باولو كويلهو

من كتاب «مكتوب»

كلام لا بد منه

منذ سنوات طويلة وأنا زبون (سُقع) لسيارات التاكسي، درت معها فى شوارع وأزقة القاهرة، بحيث أصبحت أعرف حوارها ومطباتها أكثر من أى سائق. (بعض الغرور لا يفسد للود قضية).

وأنا من هواة الحديث إلى سائقي التاكسي فهم بحق أحد ترمومترات الشارع المصرى (الصايغ)، يضم هذا الكتاب بين دفتيه بعض القصص التى عشتها وبعض الحكايات التى جرت مع سائقين من إبريل ٢٠٠٥ إلى مارس ٢٠٠٦.

أقول إن الكتاب يضم بعض القصص وليس كلها، والسبب أن أصدقاء من المحامين قالوا لى إن نشرها كفيل بزجى فى السجن بتهمة القذف والسب، وإن تسجيل أسماء بعينها فى نكت أو قصص محددة تملأ الأسماع والأبصار فى الشارع المصرى أمر خطير... خطيراً ولدى. وهو أمر أحزننى لأن القصص الشعبية والنكت المصرية سوف تضيع دون تسجيل.

حاولت أن أنقل هذه القصص كما هى بلغة الشارع، وهى لغة

خاصة وفجة وحية وصادقة تختلف تماما عن لغة الصالونات والندوات التي اعتدنا عليها.

ودورى هنا ليس بالتأكيد مراجعة دقة ما قمت بتسجيله وكتابته من معلومات، فالهم هنا هو ما يقوله فرد فى المجتمع فى لحظة تاريخية بعينها حول موضوع محدد، فالسوسيولوجى يفوق المعرفى فى مرتبة أولويات هذا الكتاب.

وسائقو التاكسى ينتمون فى معظمهم لشريحة اجتماعية مطحونة اقتصاديا. يعملون فى مهنة مرهقة جدا بدنياً، فوضع الجلوس الدائم فى سيارات متهاكة يدمر أعمدتهم الفقرية، وحالة الصراخ الدائم الموجودة فى شوارع القاهرة تدمر أجهزتهم العصبية، وحالة الزحام المستمرة تنهكهم نفسيا، والجري وراء الرزق - بالمعنى الحرفى للجري - يشد صفائر الكهرباء فى أجسادهم للمنتهى، يضاف إلى كل ذلك حالة الشد والجذب الدائمة بينهم وبين الزبائن لعدم وجود أى معايير للحساب، وبينهم وبين الشرطة التى تمارس ضدهم فى العموم ما يجعل المغفور له «الماركيز دوساد»^(١) يرتاح فى تربته.

أضف إلى ذلك أن مردود التاكسى لو تم حسابه بشكل علمى، أى واضعين فى الاعتبار كافة العناصر من إهلاك للسيارة وأجرة

(١) الماركيز دوساد: ١٧٤٠ - ١٨١٤، كاتب فرنسى، تناول فى كتاباته موضوع السعادة الحسية وارتباطها بالتعذيب الجسدى، وقد اشتقت كلمة السادية من اسمه.

السائق والضرائب وقيمة التجديد والمخالفات... إلخ ستجد أنه مشروع خامس مائة بالمائة. وأصحابه يتصورون أن التاكسى يربح لأنهم لا يضعون فى الحسبان العديد من المصروفات غير المنظورة، ونتيجة لذلك فحالة سيارات التاكسى متهاكة وبائسة وقذرة، وسائقوها يعملون عليها كالرقيق.

وقد أدى عدد من القرارات إلى زيادة الإقبال على مشروع التاكسى بشكل غير مسبوق. حتى وصل عدد سيارات الأجرة فى القاهرة الكبرى إلى ثمانين ألفا، وأهم هذه القرارات، القرار الذى تم اتخاذه فى النصف الثانى من التسعينيات بالسماح لأى سيارة قديمة بأن تتحول إلى تاكسى. والقرار الثانى بدخول البنوك فى تمويل السيارات ومن ضمنها سيارات الأجرة. وهكذا انضم عدد كبير من العاطلين إلى طائفة سائقى التاكسى، ودخلوا فى دورة عذاب حقيقية لسداد الأقساط البنكية. وتحول جهد أولئك المعذيين إلى مزيد من الأرباح للبنوك ولشركات السيارات ومستوردي قطع الغيار.

وفى المحصلة العامة ستجد الآن سائقى تاكسى من كل التخصصات ومن كافة الشرائح العلمية، بدءاً من الأمى إلى الحاصل على الماجستير لأنى لم أقابل حتى الآن سائقى تاكسى حاصلين على (الدكتوراه).

ولدى أولئك السائقين خبرات واسعة بالمجتمع، حيث إنهم يعيشون عمليا فى الشارع، ويلتقون بمزيج هائل من البشر بشكل

يومي، وتتجمع لديهم من خلال الحوارات التي يقيمونها وجهات نظر معبرة جداً عن شريحة (الغلاية) في المجتمع المصري.

والحق يقال... فإنني كثيراً ما أرى في التحليل السياسي لبعض السائقين عمقاً أكثر مما أجده لدى العديد من محللين سياسيين يمثلون الدنيا صخباً. فحضارة هذا الشعب تتجلى في بسطائه. فهذا الشعب المصري العظيم الرائع مُعلم بحق لكل من يريد أن يتعلم.

خالد الخميسي

٢١ مارس ٢٠٠٦

(١)

يا إلهي!.. كم عمر هذا السائق؟ وكم عمر هذه السيارة؟ لم أصدق عيني عندما جلست بجانبه... فإن عدد الكرمشات في وجهه بعدد نجوم السماء. تضغط كل كرمشة على الأخرى به (حنية)، وتصنع وجهها مصرياً نحتاً «مختار»^(١). أما يدها اللتان تضغطان على المقود فإنهما تتمددان وتنكمشان عبر شرايينها البارزة وكأن شرايين النيل تغذي الأرض اليابسة، مع رعدة خفيفة لا تحرك المقود يمينا أو يسارا، فالسيارة تسير ثابتة إلى الأمام، وتصدر من عينيه المغطيتين بجفنين عملاقين حالة سلام داخلية تبعث في وفي الدنيا الطمأنينة.

شعرت - بمجرد الجلوس إلى جانبه بفعل مجال مغناطيسي يصدره - أن الحياة بخير. وتذكرت لسبب مجهول شاعري البلجيكي المفضل «جاك بريل»^(٢)، وكم كان مخطئاً عندما كتب قصيدة شهيرة وغناها تقول: «ما أحلى الموت مقارنة بالشيخوخة».

(١) محمود مختار: ١٠ مايو ١٨٩١ - ٢٧ مارس ١٩٣٤، مثال مصري.

(٢) جاك بريل: ٨ إبريل ١٩٢٩ - ٩ أكتوبر ١٩٧٨ شاعر ومطرب بلجيكي.

وأن الموت بأية طريقة أفضل بكثير من الكبير». لو جلس بريل بجانب هذا الرجل كما أفعل الآن لمسح قصيدته بـ (أستيكة).

أنا : حضرتك أكيد بتسوق من فترة طويلة .

السائق : أنا باسوق تاكسى من سنة ٤٨ .

لم أتصور أنه يمارس مهنة قيادة سيارات الأجرة منذ قرابة ستين عاما . لم أجروا على سؤاله عن سنه ، ولكنى وجدت نفسى أسأله عن النتيجة .

أنا : وإيه يا ترى خلاصة خبرتك اللى ممكن تقولها لواحد زى ، علشان أتعلم منها .

السائق : غملة سوداء على صخرة سوداء فى ليلة حالكة الظلمة يرزقها الله .

أنا : قصدك إيه ؟

السائق : أحكيك حكاية حصلت لى الشهر ده علشان تفهم قصدى .

أنا : أرجوك

السائق : عييت لمدة ١٠ أيام عيًّا شديد، ماكنتش قادر أتحرك من السرير ، وأنا طبعا على باب الله يعنى اليوم بيومه معايا . بعد أسبوع ماكنتش فيه فى البيت ولا مليم . أنا عارف ومراتى مخبيّة على . أقول لها حنعمل إيه يا ستى ؟ . تقوللى الخير كثير يا أبو حسين وهى عمالة تشحت أكل من كل الجيران . وأنا

طبعا ولادى اللى فيهم مكفّيهم ، اللى جوّز نص عياله ومش عارف يجوّز النص التانى . . واللى عنده حفيد عيان بيجرى بيه فى المستشفيات . . القصد ما ينفعش نطلب منهم حاجة . . ده الواجب إن أنا اللى أساعدهم . . بعد عشرة أيام قلت للحاجة لازم أنزل الشغل . . حلفت على وقعدت تصرخ وتقول إنى لو نزلت ح أموت منها . . وبصراحة أنا ماكنتش قادر أنزل . . بس قلت لازم ، كدبت عليها كذبة بيضة وقلت لها ح أقعد فى القهوة ساعة . . أغير هوا علشان حاتخنق . . ونزلت دورت العربية وقلت يا ربنا يا رزاق . . فضلت ماشى لغاية ما وصلت عند جنينة الأورمان ولقيت لك عربية بيجو ٥٠٤ عطلانة والسواق بتاعها بيشاور لى . . وقفت . . قرب منى وقال لى معايا واحد عربى طالع المطار تاخده علشان عربيتى عطلت ؟ واخذ بالك هنا من حكمة ربنا ؟ معاه عربية ٥٠٤ حالتها بريمو ، وعطلت !! . . قلت له أوصّله .

ركب معايا الزبون . . طلع من عُمان ، من عند السلطان قابوس^(١) سألنى تاخذ كام قلت له اللى تجيبه . . أكد على . . اللى حادفحه حتاخده . . قلت له ماشى .

وأنا فى الطريق عرفت إنه رايح قرية البضائع علشان عنده حاجة حيخلصها . . فعرفته إن حفيدى بيشتغل هناك وإنه ممكن يساعده فى تخليصها من الجمر . . قال لى ماشى . . وبالفعل

(١) السلطان قابوس بن سعيد : ١٨ نوفمبر ١٩٤٠ ، سلطان سلطنة عمان .

رحت ولقيت حفيدي هناك وفي ورديته . . خد بالك هنا إن أنا
طبعاً كان ممكن ما ألاقيهوش . . خلصنا الحاجات اللي عاوز
يخلصها ورجعته الدقي .

سألني تاني حتاخذ كام يا حاج؟

قلت إحنا اتفقنا، اللي تجيبه، فراح مديني خمسين جنيه
خدتهم وشكرته ودورت العربية . . سألني راضي، ردّيت وقلت
له راضي .

قال لي بُص يا حاج . . الجمرك كان المفروض يبقى بـ ١٤٠٠
جنيه دفعت أنا ٦٠٠ جنيه . يعني الفرق ٨٠٠ جنيه دول طالعين
من ذمتي، يعني حلالك و ٢٠٠ جنيه أجرة التاكسي . . آدى ألف
جنيه والخمسين اللي معاك هدية منّي!

شفت يا أستاذ . . يعني مشوار واحد جاب لي ألف جنيه،
ممكن أشتغل شهر وماجيبهوش . . شوف رينا نزلني من بيتي
وعطل العربية الـ ٥٠٤ وأوجد لي كل المسببات علشان يرزقني
الرزق ده . . أصل الرزق ده مش بتساعك والفيلوس دي مش
بتاعتك، كله بتاع ربنا . . دي الحاجة الوحيدة اللي اتعلمتها في
حياتي .

نزلت من التاكسي أسفا فقد كنت أتمنى لو جلست معه ساعات
وساعات أخرى، ولكن للأسف كان لديّ أنا أيضاً موعد في
سلسلة الجري المستمر وراء الرزق .

(٢)

ركبت مع سائق تاكسي من شارع جامعة الدول العربية أمام
سور نادى الزمالك، وكان وجهه في حالة احتقان وكأنه على
وشك الانفجار . . شعرت حقيقة وكأن شرايينه يسكنها حنش
يتمدد ويتقلص من فرط الغضب، أو أنه سيصاب بجلطة دماغية
فوراً . .

أنا : ولا يهمك كله بيعدي .

السائق : أفندم . . فيه حاجة يا أستاذ؟

أنا : شكلك يقول إنك متضايق، قلت أقولك ولا يهمك .

السائق : أنا مش متضايق . . أنا ح أموت .

أنا : فيه إيه بس . . مفيش حاجة في الدنيا تستاهل .

السائق : لا فيه، طالع ميتين أمي علشان أكل العيال يبجي
واحد ابن قحبة ياخذهم مني . . وتقوللي يستاهل وما
يستاهلش . . آه يستاهل ما أنا طافح الكوتة مش زى سعادتك على
قلبك مراوح .

أنا : إيه يا عم ده؟ إنت حتطلع زعلك علىّ .. إيه بس اللي حصل؟

السائق : ركب معايا واحد من مدينة نصر وقاللى المهندسين ، قلت له اتفضل .. السكة زحمة والكوبرى كان واقف خالص .. قلت مش حيقدر ، لكن مش مشكلة أنا اللي ما اتفقتش معاه .. جينا نزلنا كورنيش العجوزة ، قاللى ادخل على ميدان سفنكس دخلت ، قاللى لف من أول لفة واركن هنا بعد عمر أفندى .. علشان حنعمل كمين هنا .

كمين !! قلت فى نفسى يا نهار أسود .. المهم طلّع أمين شرطة لابس مدنى .. طبعاً مش حيدفع حاجة ، وقفت أنا من هنا لقيتيه يقول لى رخصك يا بن الكلب .. قلت له : ليه بس يا باشا؟ أنا ماعملتش حاجة ، قال لى : رخصك .. طلّعت خمسة جنيه .. قال لى مايتفعوش ، طلّعت عشرة جنيه ، قال مايتفعوش ، المهم خد عشرين جنيه .. ونزل ابن القحبة .. والله ولا لك علىّ حلفان ، دول كل اللي كنت اشتغلت بيهم النهاردة بعد ما حطيت البنزين .. أنا كان هالين علىّ أطبق فى زمارة رقبتة ، لكن فكّرت فى عيالى وفى الولية مراتى .

بس أنا حمار عشان أنا دلوقتى ح أموت من الغل .. كنت قتلته وآهى موة بموة ..

أنا : هى البلطجة كدة عيني عينك .

السائق : البلطجة على ودنه .. مفيش واحد فى ولاد القحبة دول إلا مرتشى وحرامى (نصحنى البعض أن أكتب «معظمهم مرتشين» ، وليس ما قاله السائق «كلهم مرتشين» ، لكنى لم آخذ بالنصيحة لأن حالته لم تكن تسمح على الإطلاق بالتعقل وعدم استخدام صيغة المبالغة) ، الله يخرب بيت أبوهم زى ما بيخربوا بيتنا يوماتى .

من أهم الموضوعات المحببة لدى سائقى التاكسى فى القاهرة شتم وزارة الداخلية ، واحترامها وتبجيلها وتوقيرها فى نفس الوقت ، فهما - السائقون وإدارة المرور فى الداخلية - الموجودان دائماً فى الشارع .. والقصص فى هذا المجال كثيرة ولكن تلك القصة صفعتنى على وجهى بعنف .

وقد سمعت كثيراً أدعية على رجال البوليس فى قاهرته الساحرة ، ولكننى لم أكن أبدا متعاطفاً بقدر تعاطفى مع هذا المسكين ضحية هذا الأمين .

«أمين الشرطة» الذى كان حلماً جميلاً فى أوائل السبعينيات .. أمينا على الشوارع فى بدلته الجميلة ، يسير بها متأنقا ، ويا أرض انهدى ما عليكى قدّى ، ومن منا لا يتذكر

كلمات صلاح جاهين^(١) فى فيلم «خللى بالك من زوزو»^(٢)
وهو يقارن أمين الشرطة «اسم الله» بالدبلوماسى .

كيف تحول هذا الحلم إلى كابوس على قلب الشارع المصرى
خلال الثلاثين عاما الأخيرة؟

(٢)

من ضمن النتائج الاجتماعية المباشرة لحركة «كفاية»^(١) على
الشارع المصرى، أنها رفعت البنديرة فى أيام المظاهرات .
بالطبع أقصد بكلمة البنديرة الأجرة، فالبنديرة موجودة كأداة
تجميلية فقط تُزين السيارة وتمزق بنطلونات الزبائن الذين يجلسون
بجانب السائق .

فى ذلك اليوم كنت فى شارع نادى الصيد بالدقى ذاهبا إلى
وسط البلد واقفا أبحث عن تاكسى . . وكلما شاورت إلى أحدهم
وهتفت صائحا: وسط البلد . يشيح السائق بيده ويكمل سيره . .
وهذا أمر غريب . . أرجعنى إلى أيام الثمانينيات الكريهة عندما
كان العشور على كنز على بابا أسهل بكثير من ركوب تاكسى . .
ويكفى الرجوع لكاريكاتير تلك الأيام لتدرك معاناة زبائن التاكسى
من أمثالى مع الفوطه الصفراء حول العداد . . أيام الله لا
يرجعها . الآن تقف أقل من دقيقة لتركب سيارة تاكسى جميلة

(١) صلاح جاهين: ٢٥ ديسمبر ١٩٣٠ - ٢١ إبريل ١٩٨٦، شاعر ورسام

مصرى .

(٢) خللى بالك من زوزو: فيلم مصرى من إخراج حسن الإمام، ومن إنتاج
١٩٧٢ .

(١) حركة كفاية (الحركة المصرية من أجل التغيير): هى تجمع لمجموعة من المثقفين
معارض للرئيس مبارك، تشكلت فى صيف ٢٠٠٤ .

تختارها أنت من ضمن عشرات السيارات . إلا في هذا اليوم ،
حتى تفضل سائق تاكسى وتوقف وطلب منى ٧ جنيهات ،
صرخت أنا «ليه» ؟

رد على قائلا : فيه مظاهرات والدنيا فوق بعضها وحاوصلك
فى ساعة . . أقولك ٧ جنيه مش حيقضوا ح أخذ عشرة جنيه .
لا أطيل عليكم قبلت أن أدفع عشرة جنيهات فى المشوار الذى
أدفع فيه عادة ثلاثة جنيهات .

وبالفعل كان السير مستحيلا . . فقد تلاصقت وتكدست
السيارات فى الشارع ، لا تتحرك قيد أنملة ، وكأننا فى جراج
عملاق تحول إلى سجن ونحن محبوسين داخله .

أنا : إيه الحكاية ؟

السائق : مظاهرات . . مش عارف ليه ؟ فيه ييجى متين
واحد ماسكين لافتات وحواليهم ييجى ألفين عسكرى ومتين
ضابط وعربيات أمن مركزى قافلة الدنيا .

أنا : كل الزحمة دى على متين واحد ؟

السائق : الزحمة مش من المظاهرة . . وهى دى مظاهرة أصلا ،
إحنا كنا زمان بنزل الشارع بخمسين ألف . . بميت ألف . . إنما
دلوقتى مفيش حاجة لها معنى . . كام واحد نازلين من بيتهم
عشان حاجة ماحدث عارفها ، والحكومة مرعوبة ، ركبها بتخبط
فى بعضها . . حكومة والله نفخة وتقع . . حكومة من غير ركب
(يضحك عاليا) .

أنا : إيه الحكومة محتاجة كوارع ؟

السائق : ولا ينفع معاها حاجة . . نفخة كدابة ، لكن المشكلة
فينا إحنا .

أنا : إزاي ؟

السائق : عارف إيه يا أستاذ بداية النهاية .

أنا : إيه ؟

السائق : ١٨ و ١٩ يناير .

تعجبت كثيرا من هذا الرد . . كانت أول مرة أسمع ، توقع
إجابات كثيرة تقليدية عن بداية النهاية ، ولكن ١٨ و ١٩ يناير ؟!
جديدة . وتساءلت هل يعرف يا ترى أن تلك المظاهرات التى
أطلق عليها السادات «انتفاضة الحرامية» وقعت عام ١٩٧٧ ؟

لا أعرف على وجه اليقين لماذا تساءلت هذا السؤال الغبى .

أنا : ودى كانت سنة كام ؟

السائق : فى السبعينات . . يعنى حوالى سنة ٧٩ .

أنا : وليه دى كانت بداية النهاية ؟

السائق : دى آخر مظاهرات بجد فى الشارع . . عملنا فى
الستينات مظاهرات كتير وفى السبعينات قبل الحرب كان فيه
مظاهرات ياما . . وبعدين السادات الله يجحبه مطرح ما راح . .
طلع قرارات غلا لنا الدنيا . . الدنيا اتقلبت . . الناس كانت فاهمة

سياسة، نزلت الشارع وخلّت السادات يرجع في كلامه . . سمعنا ساعتها إنه خاف وهرب على أسوان، وقال لك لو قلبت جد حهرب على السودان . . جبان . . يومها والله أى حد كان ممكن يمسك السلطة، بس ماكنش فيه حد، شوية غلاية عايزين الأسعار ترخص .

(٤)

أيام عبد الناصر عملنا مظاهرات كسّرت الدنيا وفجأة لقيناه وسطينا في ميدان التحرير ولا طلع أسوان ولا حتى بيتهم . . الكلام ده بعد النكسة مش فاكرا إمتى بالظبط . .

أنا : أنا برضه مافهمتش ليه ١٨ و ١٩ يناير كانت بداية النهاية ؟ السائق : الحكومة عرفت بعدها إنها لازم تتصرف . . وإن المظاهرات دي أصبحت خطر عليها بجد . . ١٨ و ١٩ يناير ماكانتش أى حاجة، دي كانت بداية ثورة لكن تقول إيه . . ماكملتش . . ومن ساعتها الحكومة زرعت فينا الرعب من الجوع، خلّت كل زوجة تمسك في إيد جوزها وتقوله إوعى تنزل . . العيال حتموت . . زرعو الجوع في بطون كل مصرى، رعب خلّا كل واحد يقول ياللا نفسى، أو يقول وأنا مالى هي جت على، ١٨ و ١٩ يناير كانت بداية النهاية .

هل كانت ١٧ و ١٨ يناير فعلاً بداية النهاية ؟ وما هي تلك النهاية التي يتحدث عنها هذا السائق بكل تلك البساطة وكل هذا اليقين ؟

خرجت من سينما جالاكسى بعد أن شاهدت فيلم يسرى نصر الله^(١) الرائع «باب الشمس»، وقد شاهدت الجزأين بشكل متتال وكنت في حالة انتشاء وسعادة بالغة بهذا العمل المبهر . . أما قلبي فكان يرفرف عالياً وشعرت أنى أسير على ارتفاع خمسة ستمترات فوق الأرض .

أوقفت تاكسى في شارع المنيل وقبل أن أجلس قلت للسائق وسط البلد . . أجاوب بصوت خافت تفضل . .

دخلت السيارة وأغلقت الباب ونظرت أمامي فشاهدت مشهد الكهف في الفيلم على بربريز التاكسى، المكان الوحيد الذى لم يتم احتلاله بعد من المحتل، وامتلات روى بالموسيقى الجميلة لصديقى تامر كروان، ثم اكتشفت بعد فترة أن السيارة لا تتحرك والطريق خال أمامنا .

(١) يسرى نصر الله : ١٩٥٢، مخرج سينمائي مصرى، وهو مخرج فيلم باب الشمس (٢٠٠٤) .

نظرت إلى السائق فوجدته في سبات عميق . . لم أعرف ماذا أفعل هل أنزل وأتركه نائما، ترددت قليلا، وفي النهاية لمست كتفه فانتفض مذعورا ووضع يديه على الفيتيس بشكل تلقائي وتحرك بالسيارة، ثم سألتني على فين إن شاء الله؟ فأجبت وسط البلد . . اعتذر لي السائق عن غفوته . . ولم تمر سوى ثوان معدودة وإذا بالسيارة تنحرف قليلا إلى اليسار . .

فنظرت إلى السائق ووجدت جسده كله ينحرف هو الآخر يسارا . . وهو نائم تماما . .

صرخت مذعورا وأمسكت المقود فاستيقظ السائق وأنقذ الموقف واعتذر ثانية . . فطلبت منه أن يتوقف كي أنزل . . حلف لي بالإيمان أنه لن ينام ثانية وأنه سوف يصل بي إلى وسط البلد سالما غائما .

طار انتشائي بفيلم «يسري» وتوقف قلبي عن الرفرفة وانتابني القلق والتوجس، وبالفعل لم تمر دقيقة إلا ووجدت السيارة تميل يسارا وجسده يميل يمينا نحوي حتى أن كتفه لامست كتفي!

صرخت مرة أخرى فعدل مسار المقود وأكد لي بلهجة أنه ليس نائما وبدأ يتحدث كي لا ينام .

السائق: أصل أنا بقالى ٣ أيام فى التاكسى . . ما التحركتش منه خالص

أنا : ٣ أيام . . إزاي يعنى ؟

السائق : النهاردة ٢٧ . . فاضل لى ثلاث أيام ولازم أدفع فسط العربية . . العربية عليها ١٢٠٠ جنيه فى الشهر، من ٣ أيام حلفت على مرأتى يمين طلاق بالتلاثة ما أنا راجع البيت من غير ما أدفع فلوس القسط كلها . . ماكانش معايا منهم غير متين جنيه ومن ساعتها دخلت العربية وماخرجتش منها غير لا مؤاخدة للتبول بس . . باكل فيها وباشرب فيها . . بس مش بنام، لازم أجيب فلوس القسط ولازم أدفعه قبل نهاية الشهر .

أنا : بس إيه القايذة إنك تحيب فلوس القسط وقوت . . ما إنت ممكن تعمل حادثة وتروح فيها، وأروح أنا كمان معاك .

السائق : عمر الشقى بقى والأعمار بيد الله . . ومحسوبك شقى قوى وأهى هانت، فاضل يجى ٣ أيام كمان وألم فلوس القسط . .

أنا : طب ما تروح تنام لك ساعتين ولا ثلاثة . . مش حتفرك معاك، ويا سيدى خليه تلات أيام وتلات ساعات .

السائق : أنا حلفت يمين طلاق ثلاثة . . وأصل حضرتك مش فاهم . . إحنا بناكل اليوم بيومه، والطقة بطقتها . . يعنى لو روجت البيت ح ألقى ميت مصيبة ومصيبة، وح ألقى العيال مش واکلة وأمهم حايسة ولايصة . . لا يا سيدى يفتح الله . . أنا مش

حتحرك من التاكسي ده إلا على الأستاذ إبراهيم عيسى أدفع له القسط وتمام التمام وبعد كده أروح . .

تركته والقلق ينهشنى . توقفت بعد نزولى من التاكسي ، وتتبع السيارة بنظري وهى تسير مبتعدة وأنا أتوقع فى أية لحظة أن ينام سائقها وتحدث الكارثة ، لكن السيارة لم تنحرف حتى اختفت تماما عن ناظرى .

(٥)

السائق : ويسألوا الاقتصاد بايظ من إيه؟؟

بايظ من الناس . . تصدق بلد زى مصر . . شعبها بيدفع أكثر من عشرين مليار جنيه فى السنة على التليفونات . . عشرين مليار جنيه ، يعنى لو متكلمناش سنتين ولا ثلاثة ، مصر ح تختلف؟

شعب مهووس والله . . مش لاقى ياكل وكل واحد ماشى معاه موبايل وفى بقعة سيجارة . .

رجالة المفروض عندها مخاخ ويتدفع كل فلوسها على المصيبتين دول التليفونات والسجاير ، وفى الآخر يقولوا أصل البلد حالتها مش ولا بد .

كل فلوس الناس بتروح فى جيب أربع شركات . . الاتصالات وموبينيل وفودافون وشركة الشرقية للدخان^(١) .

(١) تحقق مصر واحدة من أدنى معدلات الادخار فى العالم ، حيث بلغ متوسط معدل الادخار من ١٩٩٨ إلى ٢٠٠٤ نحو ١٣,٦ ٪ ، نتيجة لسيادة الثقافة الاستهلاكية التى تروج لها أجهزة الاعلام ، مما يمنع زيادة معدلات نمو الاقتصاد المصرى .

والإعلانات الله يخرّب بيتها عمالة تضغط على الناس اشتركوا
فى موبينيل، لا اشتركوا فى فودافون. . . عالم مجنون. .
الإعلانات دى لازم تمنع. . . عالم أكاذيب ومفتوح علينا طول
النهار وطول الليل. . . ماشى فى الشارع شايف إعلانات. . . تفتح
الراديو إعلانات. . .

تروح البيت تلاقى التليفزيون مفتوح. . . إعلانات. . . وكلها
سفالة وكذب. . .

والناس عاملة زى المواشى ماشية وراء إعلانات وعمالة تكع
فلوس وفى الآخر يقولوا لنا البلد ما فيهاش فلوس.

إزاي يعنى؟ أموال المليارات اللي بتتصرف على كلام فى الهواء
جاية منين؟

مش الفلوس دى أولى تروح على الأكل وعلى السكن
وعلى التعليم وعلى الصحة. . . بس تقول مين. . . إذا كان رئيس
الوزارة بتاعنا هو رئيس التليفونات. . . يعنى بتاع الكلام فى
الهوا. . .

بس بصراحة المشكلة مش فى الحكومة، المصيبة فى عبط الناس
اللى عمالة تفرّتك فلوسها على الهواء والدخان.

أنا لو مسكونى البلد دى يوم واحد، لأ دقيقة واحدة. . .
القرار الوحيد اللى ح أطلعاه هو منع الإعلانات.

زمان على أيامنا كانت الإعلانات لخدمة المجتمع همه كمام
إعلان، وكان الله بالسر عليم، إنما دلوقتى الإعلانات لخراب
المجتمع وحتخربها وتقعد على تلها. وابقى قول أبو إسماعيل
قال لى.

جديدة على أذنى التى سلمتها لهؤلاء الكادحين منذ قرابة ربع القرن . قال لى :

ـ عارف إيه الفرق الكبير بين السادات ومبارك؟

كنت بالطبع لا أعرف الفرق الحقيقى فلم أرد .

ـ الفرق يا سيدى إن السادات كان مهتم جدا بأولاده اللى خارج مصر . . كان الراجل حامينا بحق . . أما مبارك فالراجل قلبه ضعيف . . وسايب البلاد تاكل فينا زى ما تاكل ولا هو سائل . . طب أنا أحكى لك حكاية ولا حكايتين عشان تفهم الحركة دى . (لا معنى على الإطلاق لكلمة حركة هنا ولكنه قالها هكذا) فى السبعينات اليونان فتحت موضوع دخول المصريين ليها على البحرى ، جت آخرتها الحكومة اليونانية صوتت لما لقت إن عدد المصريين كثر قوى وبيحصل تهريب كثير . . قام عملوا إيه؟

(إيه؟)

عرضوا فيلم مصرى أظن كان «أبى فوق الشجرة»^(١) بتاع حلیم فى أكثر من سينما فى الأحياء اللى فيها المصريين . . راحوا طبعا المصريين يحضروا الفيلم وفى نصه كبس البوليس ولم لم لم

(١) أبى فوق الشجرة: فيلم من إخراج حسين كمال، ومن إنتاج عام ١٩٦٨، أول عرض ١٧ فبراير ١٩٦٩ .

(٦)

نادرا ما ركبت مع سائق تاكسى لم يختبر تجربة الهجرة، بعضهم سافر لفترات طويلة إلى أكثر من دولة .

أما هذا السائق فتجربته فى مجال الهجرة بدأت منذ عام ١٩٧٧ وحتى عام ٢٠٠٤ متقطعة على حد قوله ، ولكنه ما كاد أن يعود للوطن حتى يبدأ من جديد . سافر إلى العراق والكويت والسعودية وليبيا ومر بالطبع على الأردن وسوريا . . تجربة حية مع أحد دخول مصر الرئيسية وهى تحريلات المصريين المقيمين أو المضطرين للإقامة فى الخارج .

انتقد السائق بعنف الأوضاع فى مصر . . وأكد لى أنه شبع شعارات جوفاء عن حب الوطن ، «ولو لم أكن مصرياً» ، الكلام اللى ولا بيودى ولا بيعيب . وشرح لى أنه عاد منذ عامين مضطرا لظروف خارجة عن إرادته والمضطرب يركب الصعب . . والصعب فى حالته أنه يقيم الآن فى هذه الدولة الوسخة على حد قوله . كل ذلك كلاسيكى إلى حد كبير وليس فيه جديد ومشترك لدى شريحة كبيرة من السائقين ولكنه حكى لى قصصا عن الغربة ،

على البوكس وبعدها على التهجير!! خطوهم كلهم فى مركب
علشان يطلعوهم على الإسكندرية . . أصل كان معظمهم
إسكندرانية، مين عرف بالموضوع ده . . السادات . . الرجال
إتجنن . . كلم السفير بتاعه وقاله أول ما المركب تتحرك من الميناء
إدينى خبر . . وبالفعل السفير راح مكلمه وقال له السفينة اتحركت
يا أفندم . . راح مكلم وزير الداخلية وطلب منه يلم مائة يونانى
قورا وبدل ما يهجرهم بمركب راح مطلعهم على طيارة . .

رئيس الوزارة اليونانى أما عرف بالخبر كلم السادات . . راح ده
قاييل له اللى تعملوه فى ولادى أعمل زيه فى ولادكم . .
وبعدين راح مهدده وقال له إنت لسه ما شفتش حاجة . . فما كان
من رئيس وزارة اليونان إلا إنه كلم المركب اللى عليها المصريين
وقال لهم لقروا وارجعوا تانى . . ورجع كل المصريين اللى كانتوا
على المركب أتيتا . . وراحوا كمان مديينهم إقامة . تصدق بالله
إقامة .

دى حكاية معروفة جدا . . إزاي حضرتك ماتعرفهاش . . هو
ده كان السادات . . بيدافع عن كل مصرى بره .

أكدت له أتنى . رغم شهرة الحكاية . أول مرة أسمع بها . فقال

لى :

طب اسمع دى ، أصل حكايات السادات كتير بس دى
حلوة . . كان فيه تشش (Touch) بين مصر والبلاد العربية بعد

(٧)

اخترقنا ميدان التحرير . . وقد تحول إلى ثكنة عسكرية بفضل سيارات الأمن المركزي العملاقة والعدد الكبير من الضباط والعساكر، وكان ذلك بعد حوالي الشهر من العملية الانتحارية أو الإرهابية أو الغبية أو المتخلفة أو اليائسة التي أدت إلى مقتل منفذها وإصابة عدد من السياح من ضمنهم إسرائيلي، أدت إلى مزيد من الازدحام في القاهرة إلى درجة أصبحت لا تطاق.

انحرفنا إلى شارع رمسيس ففوجئت بصف لا ينتهي من سيارات الأمن المركزي مصطفى على يمين الطريق . نظرت مشفقاً إلى هؤلاء البائسين من عساكر الأمن المركزي القصار القامة من سوء التغذية والذين يبدو عليهم أن البلهاريسيا تأكل أجسادهم . نظر إلى أحدهم من شباك صغير يشبه شباك الزنزانة نظرة استجداء . وجه لي السائق نظرة ساخرة وسألني :

- السائق : عرفت يا باشا الحكاية الفظيعة اللي حصلت للظابط

إمبارح؟

أجبت أنا بالنفي فأكمل القصة : «يقولك واحد ظابط دخل على العساكر بتوعه في العرييات دي (وأشار إلى سيارات الأمن المركزي) فمات من الريحة !» .

ثم انفجر ضاحكاً . لم أضحك فأكمل هو :

«إنت متصور سعادتك ريحة الغلاية دول في الحر ده وهما محشورين في العريية دي زي السردين؟ عمالين يعرقوا ويجيئسوا . . الظابط يا عيني راح فطيس . . مات باسفكسيا الخنق» .

بدا على وجهي الاستغراب وسألته : «حصلت فعلاً الحكاية دي؟» .

السائق : صباح القل يا باشا . . دي نكتة . . لقيتك مكشر قلت اضحك معاك شوية .

أنا : والله أنا مكتتب شوية ، بس ماكتتش واخد بالي إن شكلي باين عليه للدرجة دي .

السائق : ماحدث واخد منها حاجة . . طيب اسمع دي . . «واحد ماشى في الصحراء لقي مصباح علاء الدين . . دعه . . طلع له الجنى . . قال له شببك لبيك أمرك بين إيديك ، الراجل مصدقش عينيه وراح طالب مليون جنيه . . راح الجنى مديله نص مليون . . قال له طب وفين النص الثاني إنت حتحنصر من أولها ،

أجنى رد عليه وقال له أصل الحكومة مشاركة في المصباح فيفتى
فيفتى». ثم انفجر ضاحكا.

أضحكتني ضحكته أكثر من النكتة.

السائق: إنت عارف إن الحكومة فعلا بتأخذ ييجي نص
مكسبنا؟

أنا: إزاي؟

السائق: عن طريق التقليل... كل شوية يطلعوا لنا في حدوتة
جديدة... بس بصراحة أحلى واحدة بتاعة الحزام.

أنا: ماله الحزام؟

السائق: الحزام ده نكتة... ونكتة بايخة وسكّتها الوحيدة
التقليل... حزام للسواق وللى قاعد جنبه زى بلاد بره ولاد
ال... والأغلبية في البلد دي بتمشى بالكثير على ٣٠ كيلو متر
في الساعة بس تقول سعادتك إيه بقى... بيزنيس.

فجأة كده قالوا لك لازم تركب الحزام والمخالفة بخمسين جنيه
وراحت نزلة حزمة نار، الحزام ما يقلش عن ميتين جنيه... طبعا
سبوبة داخل فيها ناس كبار... كبار قوى، تصور حضرتك فيه
كام تاكسى فى مصر وفيه كام عربية فى مصر ماشية وما فيهاش
حزام... عد إنت بقى... شغل بالملايين يا باشا، شغل على مية
بيضاء.

أنا: الحزام إجبارى فى كل حطة فى العالم... حزام أمان لازم
بتركب.

السائق: عالم إيه وزفت إيه، دى حكومة بنت عرص، إنت
عارف إن الحزام قبلها على طول كان بيعتبر كماليات، يعنى كان
يعتبر فى الجمرك زيادات لازم تدفع عليها جمرك زيادة، أنا كنت
مدخل عربية تويوتا من السعودية واضطريت أقطع الحزام بإيديا
وأسيل التكييف عشان ما أدفعش عليهم جمرك كماليات...
مفيش بعدها بكام شهر الحزام بقى إجبارى يعنى من كماليات
وزيادات لإجبارى عدل... تقول إيه... جرينا اشترينا حزمة
وعملوا علينا شغل تمام.

الحكاية كلها بيزنيس فى بيزنيس، الكبار قوى استوردوا الحزمة
وباعوها وكسبوا ملايين، والداخلية اشتغلت مخالقات الله ينور
ولموا ملايين، والعساكر الغلاظة بتوع الشارع يوقفوك ويقولك
الحزام يا بن الكلب وينوبه خمسة جنيه ولو وقفك ومعاها ظابط
حينوبه عشرين... يعنى الكل مستفيد.

وبعد كده عايز أقولك حاجة... إنت أكيد عارف إن الحزام ده
أصلا كذب فى كذب، الكل عارف إن الحزام ده ديكور يعنى
بتركبه أونطة، بص.

(ورفع السائق أمامى الحزام لكى يرينى أنه ليس مربوطا).

والظابط لو وقفك ببص على الحزام وهو عارف كويس قوى

إنه ديكور . . الحزام ده لازم أما تدوس على الفرامل يشد معاك ،
أما عربياتنا فلما بتضرب فرامل . . الحزام يفك معاك .

(يضحك بصوت عال) .

إحنا عايشين فى كذبة ومصديقينها . . والحكومة دورها الوحيد
تراقب إن إحنا مصدقين الكذبة ، ولا لأ ؟

* * *

أنا : إنت بتروح سينما ؟

السائق : السينما . . ياه . . أنا بقالى مليون سنة مارحتش
سينما . . استنى كده . . أنا فاكّر آخر مرة رحت سينما كان سنة
أربعة وثمانين . . كانت سينما القاهرة أو بيجال فى شارع عماد
الدين .

بعدها الحياة فرمتنى فرم . . بقيت عامل زى «فرج الله» (ماركة
لحم مفروم) من يومها مارحتش ولا سينما ولا مسرح ، رغم إن
أنا كنت بروح سينما كتير أوى فى أواخر السبعينات . . كنت
ساكن فى شارع الجيش . . عارف محمود بتاع الفسيخ ؟

أنا : أيوه عارفه .

السائق : ده أعظم فسخانى فى الدنيا .

أنا : وانت كنت ساكن جنبه ؟

السائق : أيوه أنا كنت ساكن جنبه على طول .

هناك فى شارع الجيش كان فيه سينما هوليوودى كانت

بتعرض خمس أفلام فى البروجرام . . اثنين أجنبى وواحد عربى . . وبعد كده بتعيد الاثنين . . إحنا كنا بتفرج على الثلاث أفلام وبعديها نشوف الإعادة ، وأوقات تانية كنا بعد الثلاث أفلام ما يخلصوا نعدى الشارع ، كان على الناحية الثانية فيه سينما مصر ، الله يرحمها ويرحمهم جميعا ، دى كانت شتوى وصيفى . . الصيفى كانت فوق . . كنا ندفع للراجل أى حاجة وننط وننفرج على أفلام الإعادة بتاعة سينما مصر . أيام ماتعوضش . . كانت ساعتها التذكرة بخمسة تعريفة .

أنا : ولسه فاكرا الأفلام اللى كنت بتشوفها ؟

السائق : فيه أفلام مش ممكن الواحد ينساها . . أكثر فيلم كنت بحبه «الشمس الحمراء» بتاع تشارلز برونسون ، تشارلز كانت عنده بصمة كدة من تحت البرنيطة كنا نقعد نقلدها . فاكرا الفيلم ده ؟

.....

إزاي ؟ أفكرك ، فى الفيلم ده كان ماسك واحد يابانى وكان مستخونه فقبل ما يناموا ربط لامواخذة الشوز بتاعه فى رباط الواد اليابانى . . جه اليابانى يهرب . . مشى شوية بطول الرباط . . أصل تشارلز كان مطول الرباط حبتين . . وفجأة راح واقع وتشارلز صحى من النوم .

أما أحلى فيلم مصرى بالنسبة لى كان سواق الأتوبيس بتاع نور ، ده بقه شفته بيجى عشر مرات .

وكان فيه كمان فيلم أمريكانى عظيم بس مش فاكرا بتاع مين اسمه «عندما تنور الوحوش» وطبعاً «جودزيلا والوحش الذرى» و«الرأس الكبير» بتاع بروس لى و«الصديقان» الهندى . .

وأما نزل «الفيل صديقى» نزل فى الشرق فى السيدة زينب رحنا رايعينه . .

أنا : وماكتش بتروح مسرح ؟

السائق : إزاي . . كنت بروح مسرح الطليعة ، كنا بنجيب تذاكر بعشرة صاغ . . آه أنا كنت مجنون فن والله . . بس تقول إيه بقى . . طب تصدق بالله .

أنا : لا إله إلا الله .

السائق : أنا اشتريت فى فرقة مسرحية . . اسمها فرقة «الشائر الحديث» كانت فى شارع جلال .

أنا : فبن شارع جلال ده ؟

السائق : ده شارع متفرع من شارع عماد الدين قدام سينما بيجال على طول . . كنت مرة باكل كشري فى جحا ، ده أشهر محل كشري فى مصر . . وشفيت شباب كتير واقف . . وعرفت إنهم من فرقة «الشائر الحديث» . . وقالوا لى إنها فرقة اتخرج منها كتير من الكبار قوى زى خيرية أحمد . . وإنها تبع وزارة الثقافة . .

أنا: وبعدين .

السائق: اتقدمت وبديت أعمال بروفات . . كان فيه مشهد كده
بندخل فيه على فندق ونقعد ننده :

«يا أهل الله ياللى هنا، يا أهل الله ياللى هنا»، وبعدين قالوا لنا
نحبيب هدم من عندنا . .

وبعدين قالوا لنا كمان لازم نحبيب متفرجين . .

قلت أنا فى عقلى مش ممكن نكون الفرفة دى تبع وزارة
الثقافة . .

اللبس علينا والزباين كمان ؟!

ورحت كاتت .

أنا: وإيه اللي حصل بعد كده ؟

السائق: ماعرفش إيه اللي حصل . . الدنيا إتغيرت، ولا أنا
اللى إتغيرت . . تصدق بالله . .

أنا: لا إله إلا الله .

السائق: أنا أول مرة أتكلم فى الموضوع ده . . وماكنتش واخذ
بالى إن أنا بقالى بيعجى حاجة وعشرين سنة ما شفتش فيلم .

أنا: والذكريات دى كلها، حتخليك تروح تانى سينما؟

السائق: أنا بالصدفة كنت بوصل زباين من بيعجى أسبوع فى

برج ساويرس اللى على الكورنيش . . ولقيت لك تذكرة السينما
بقت بخمسة وعشرين جنيه . . يعنى بالطبط ألف ضعف السعر
من عشرين سنة بس، تتصور ألف ضعف، أنت تعرف حضرتك
حتى السينمات الغالية لغاية بعد سنة تمانين كان كبيرها ستاشر
قرش ونصف التذكرة . . زى سينما مترو وراديو وقصر النيل
وكايرو وميامى .

وبعدين دلوقتى أغلبية السينمات بتاعتنا خلاص قفلت، سينما
هوليود بقت حاجة تانية، وسينما مصر وسينما ريو بتاعة باب
القوق وسينما ستار بتاعة شارع خيرت وسينما إيزيس وسينما
الأهلى وسينما الهلال الصيفى بتوع السيدة زينب . . وغيرهم كتير
أوى كلهم قفلوا . .

عامة أنا اللي شفته شفته واللى ما شفتوش إجعلنى ما شفته،
الدور والباقي على عيالى . . عمرهم ما راحوا لا سينما ولا
مسرح . . ولا حيروحو . . بيتفرجوا على الدش على القهوة اللي
نحسنا، ربنا معاهم . . أنا شخصياً مش عارف إيه اللي ممكن يطلع
فى أمخاخهم غير الصبار .

وزوجات . . ونسأل الله أن ينتقم من الظالمين وأن يحفظ
شباب المسلمين . . مصيبة . . مصيبة . التبرج اليوم أصبح
عري ، البنت تلبس فائلة وينطلون وكأنها لا تلبس شيء . .
وصدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين قال «كاسيات
عاريات ، رءوسهن كأسنمة البخت ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن
ريحها» .

(٩)

أدار السائق زر تشغيل الكاسيت . . وانطلق صوت جهورى
يحذر من المرأة ، ويقول «أحبائى فى الله دعونا نتكلم اليوم عن
الفتن التى تحيط بنا ، فلا شك أن أكثر فتنة تحيط بالمسلمين هى
فتنة النساء . . اللهم نعوذ بك من شر النساء ، قال رسول الله
(صلى الله عليه وسلم) إن أول ما فتن أمة إسرائيل كانت النساء . .
ولكل أمة فتنة . . وفتنة هذه الأمة المال ، ولكن النساء أيضاً ،
النساء فتنة عظيمة . . خطيرة إلى أبعد حد . . حقيقة أنا كنت أظن
أن الفتن ستنحسر ، فى أواسط الثمانينات ظهر الميكروجيب
القصير جداً ، وانحسرت هذه الموضة فى التسعينات فظننا أن
الأمر قد زال . . فإذا به فى هذه الأيام على أشده . . بما لم يشهد
له العالم مثيلاً .

اللهم احفظ بنات المسلمين واستر عورات المسلمين .
مصيبة . . مصيبة . . الشباب عينيه يمين وشمال تقع على
أجساد عارية ، ونظرات شهوانية ، وضحكات داعرة . . متسببة . .
ونساء لا راد لها .

عندما نمشى مع بعض الشباب ويقول الشباب شوف يا شيخ . .
أقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولكن أتذكر أى أب محترم
يسمح أن ابنته تخرج من عنده بالشكل ده؟؟ كأنه يقول روحى
عشان يتزنى فىكى .

أطاحت هذه الجملة الأخيرة من هذا الشيخ الفاضل بالبقية
الباقية من صبرى . . فبادرت السائق قائلاً :

أنا : إيه الكلام الفارغ ده ؟

السائق : كلام فارغ !! كلام فارغ إيه يا أستاذ متقولش كده . .
ده كلام الشيخ «محمد حسين يعقوب» ، عنده حق فى كل كلمة

البنات فى سن صغير من ١٣ لـ ١٨ سنة صاروا أسوأ شيء يُرى
على ظهر الأرض . . وللأسف الشديد علمت من كثير من
الشباب وسائقى الميكروباص والتاكسيات أن الزنا صار منتشرًا
وواضحًا بل مشهورًا بل وبإقرار آباء وأمهات وأزواج

يقولها . . البنات . . يا ساتر يارب دول وبنان علينا والعياذ بالله ،
دول كلهم اتحولوا ولا مؤاخذه لداعرات . . أنت حضرتك مش
بتمشى فى الشارع علشان تشوف بنفسك الأحمر والأخضر اللي
على وشهم . . ملطخينه بروح الشيطان .

حاولت مقاطعته فلم أفلح فقد انطلق كالرصاصة فى اتجاه
أذننى .

السائق : إنت حضرتك ما يخیلش عليك الحجاب اللي هما
لابسينه . . شوف البنطلون المحزق والهباب اللي ملطخين بيه
خلقتهم . . وما قولكش بقى فى الصيف وإيه اللي بيحصل . .
اللهم اكفينا شرهم . . سعادتك العرب بيجوا ويملوا
المهندسين . . تبص حضرتك تلاقى البنات فى جامعة الدول
العربية والبطل أحمد عبد العزيز زى النمل . مصيبة والعياذ
بالله . . البنات عايزة الدبح . . لأ والله الدبح قليل عليهم . . دول
عايزين الحرق .

عامه دى من علامات الساعة . . أصل الساعة قربت جدا . .
الانحلال بيعم . . والأخلاق مفيش . . والفساد على ودنه ، كل
دى من علامات الساعة .

يُثبت من محاولة الحوار معه . فقررت الاكتفاء بالاستماع
إليه .

السائق : سمعت حضرتك إن فيه بلاد بقى عدد الستات فيها

أكثر بكثير جدا من عدد الرجال . . ما أقولكش بقه عن الانحلال
فى البلاد دى شكله إيه . . ما هى دى كمان من علامات
الساعة . .

وأهم حاجة منسوب المياه فى بحيرة طبرية . . يقولوا إن يوم
الساعة حتكون البحيرة دى ناشفة تماما ودلوقت سمعت إنها
خلاص بتنشف ما فضلش من المية غير القليل .

واللى بيحصل فى فلسطين وفى القدس . . المسألة واضحة
تماما كلها كام سنة وخلاص من اجتهد لله حيترفع للجنة والبقية
حينخفس بيهم الأرض إن شاء الله . اللي واكليتها والعة وماصين
دمننا حيصلوا فى نار جهنم إن شاء الله . .

والدور والباقي على الستات . . دول حيتشوا على النار لغاية
ما يقولوا يا كفى .

حمدت الله من كل قلبى أننى قد وصلت . .

هربت من التاكسى قبل أن تصلنى لعناته . . وحمدت الله أننى
لست امرأة ، فقد كان يمكن أن أموت حسرة من كل ذلك الظلم
الذى لحق بى مع هذا الرجل .

تذكرت الرواية الجميلة لأمين معلوف^(١) «رحلة

(١) أمين معلوف : ٢٥ فبراير ١٩٤٩ ، روائى وصحفى فرنسى من أصل لبنانى .

بالداسار»^(١) المستندة على أصل تاريخي والتي تمحورت على انتظار الناس عام الوحش ، عام نهاية العالم بظهور المسيح الدجال عام ١٦٦٦ ، كانوا في انتظار الإشارات لقيام الساعة .

ولكل زمن ناسه الذين يأملون في يوم قيامة قريب لإنصافهم من الظلم والجور .

(١٠)

كانت سيارة الأجرة لا تستطيع أن تتحرك من شدة الزحام في شارع عباس العقاد بمدينة نصر . الساعة التاسعة مساءً واجهات المحلات تتلألأ بأنوار النيون حتى إنني كنت أغمض عيني من لمعة الأضواء . . وتسلل إلى السيارة من أحد المقاهي أو المحال صوت كاظم الساهر يغني لمعشوقته .

مصمم السائق شفتيه وقال بحسرة :

«يا عيني يا عراق ، يا حسرة قلبي عليكى» .

أنا : رحت العراق يا ترى ؟

السائق : قضيت فيها أحلى ستين عمري . . العراقيين دول أجدهم ناس . . لغاية دلو فتى مش قادر أصدق اللي حصل للعراق ، مش ده اللي كنت متخيله خالص . . يا عيني يا عراق . .

أنا : إيه اللي كنت متخيله ؟

السائق : بصراحة كنت حاسس إن صدام حيتنصر على

(١) رحلة بالداسار : رواية لأمين معلوف ، دار جراسم للنشر عام ٢٠٠٠ .

الأمريكان، حتى لما شقت بعيني الدبابات الأمريكاني يتمشوا في شوارع بغداد. . قلت في عقل بالي دي خطة صدام عاملها علشان يدخلهم بغداد ويعددين يعمل عليهم كماشة ويقضي عليهم. . مش قادر أصدق لغاية دلوقتي. . بس برضه رجالة. . مافيش يوم عددي إلا وقتلوا كام واحد أمريكي. . حيصقوهم واحد واحد إن شاء الله. .

أنا: من بقتك لباب السماء. . بس أنت مش شايف إن صدام هو السبب في البلاوي دي؟

السائق: أنا بأمانة بحب صدام. . كان له مواقف جدعنة كثير أوى مع المصريين. . ماتنساك إنه درس في القاهرة. . في الثمانينات وأنا في العراق كان فيه شوية رخامة مع المصريين. . لقيت لك صدام طالع يقول خطبة وراح قايل إن أي عراقي يتعرض لواحد مصري حياخذ ست شهور حبس. . حبس كده على طول. . بصراحة موقف مايتنسيش. . بعدها كنا بنمشي في بغداد مرفوعين الرأس. وبعدين اللي حصل في العراق ده احتلال رسمي نظمي فهمي، مالوش علاقة ولا بصدام ولا بأي حاجة. . قالوا عندهم أسلحة خطيرة وأهوه مالاقرش حاجة.

عايزين البترول بتاعهم، قاموا احتلوهم، شوية نصوص، على شوية بلطجية، وضربوا كرسي في الكلوب. . دمروا العراق يا عيني. .

بس زي ما بقولك كده. . أنا عارف العراقيين كويس وبعاشرهم فوق العشر سنين. . دول شعب رجالة. . وحيطّل عيني الأمريكان. . كلها كام شهر وحيهربوا ولاد الكلب من هناك ديلهم في سناتهم، حينقدوا بجلدهم قبل ما يحصل فيهم زي اللي حصل لهم في فيتنام. . والله العراق حتبقى أسوأ كمان. .

أنا: وإمتي عرفت إن دي مش حركة عاملها صدام وإن بغداد سقطت فعلا؟

السائق: والله أنا كان عندي أمل لغاية ما قبضوا على صدام. . يوميه عيطت عياط، وحسيت إن إحنا بتنفعض زي الحشرات حسيت إنني ثملة وأي حد حيهرسني. . حسيت بمهانة وفكرت في كل أصحابي هناك ويا ترى أحياء ولا موتي. . بس أنا بقول لحضرتك حاجة وإبقى افكرني العراق هو اللي حيتنصر في النهاية والعبرة باللي يضحك في الآخر مش في الأول.

سرت في روعي شحنة من التفاؤل.

ونزلت من التاكسي تحت منزلي فوجدت أربعة من الشباب بدخنون السجائر المارلبورو ويشربون كوكاكولا ويرتدي أحدهم حذاء نايك ويلبس الآخر تي شيرت على كفه الأيسر علم أمريكا، فتبخرت شحنة التفاؤل وصعدت إلى منزلي مطأطأ الرأس.

بصيت في المراية اللي قدامى .

صرخت فى وقالت لى : «بص قدامك»

قلت لها : إنتى بتعملى إيه ؟

ردت بزعيق : إنت مالك ، سوق وإنت ساكت . .

بينى وبينك فكرت أوقف العربيه وأنزلها وبعدين قلت وأنا
مالى وصبرت أشوف حتقلع لغاية فين ؟

شوية ولقيتها بتقلع الجيبة . . قلت حلو . . حنتفرج ببلاش .

بصيت لقينها لابسة جيبه قصيرة ولابسة شراب أسود تخين
مش ميئن حاجة . . طبقت الجيبة الكبيرة وحطتها فى الشنطة . .
وبعدها راحت قالعة القميص .

عينى التحجرت على المراية ، العربيه اللي قدامى فرملت كنت
حاجبط فيها .

صرخت فى زى المجنونة :

«يا راجل يا شايب عيب ، سوق قدامك» . .

لقيتها لابسة بلوزة محزقة كده وشكلها حلو . . أنا بصراحة
ماردبتش عليها .

حطت القميص فى الشنطة وراحت مطلعة عدة ماكياج وبدت
تخط أحمر شفایف وأحمر على خدودها وراحت مطلعة الفرشاة

(١١)

السائق : لو حكيت لك اللي حصل دلوقتى . . مش حتصدق ،
أنا بقالى أكثر من عشرين سنة بأمسوق تاكسى شفت بلاوى مالهاش
عدد ، ولكن اللي حصل دلوقتى من أطرف الحاجات اللي حصلت
لى .

أنا : خير . . احكى لى

السائق : واحدة منقبه ركبت معايا من شبرا وقالت لى
المهندسين . . ركبت ورا وكان معاها شنطة ، أول ما طلعتنا على
كوبرى ٦ أكتوبر . . لقيتها بتبص يمين وشمال وراحت قالعة
النقاب اللي على راسها بصيت أنا فى المراية . . أصل بص أنا
عندى مراية صغيرة تحت المراية الكبيرة علشان أشوف اللي
بيحصل ورا . . الواحد لازم يحرص . . مش بيقولك حرص
وماتخوتش . . المهم لقيتها محجبة . . استغربت وسكت . . بعدها
بشوية شالت الطرحة وكانت رابطة شعرها بالبوجودى . . وبدت
تفك فى البوجودى . . ونحطه فى الشنطة ، وبعدين راحت مخرجة
فرشاة مدورة وبدأت تسرح شعرها . .

بتاعة الرموش وبدت تعمل فى رموشها . . المهم مفيش وأنا نازل
من ٦ أكتوبر على الدقى كانت واحدة تانية خالص . . والله بنى
أدمة تانية لا يمكن تقول إنها دى المحجبة اللى ركبت معايا فى
شبرا . .

وختمتها بأنها قلعت الشبشب اللى كانت لابساه وراحت
مخرجة جزمة كعب كباية وراحت لابساها .
قلت لها بصي يا بنت الحلال كل واحد فينا له خصوصياته بس
والنبي قولى لى إيه حكايتك؟

بصت لى البت وقالت لى : أنا نازلة محبى الدين أبو العز . .
سكت أنا ومكررتش السؤال . .

بعد شوية لقيتها بتحكيلى : يا سيدى أنا باشتغل جرسونة فى
مطعم هناك ، شغلانة محترمة ، وأنا ست محترمة وباشتغل
بشرقى ، فى الشغل لازم مظهرى يبقى كويس .

فى بيتى وفى الحنة كلها ماقدرش أخرج ولا أدخل غير
منقبة . . واحدة صاحبتى جابت لى عقد مضروب فى مستشفى
فى العتبة ، أهلى فاكرينى شغلانة هناك . . وأنا بصراحة أكسب لى
ألف مرة أشتغل هنا ، أنا ممكن يطلعلى تيبس^(١) فى اليوم भरत
شهر فى المستشفى المعفنة .

(١) تيبس : كلمة إنجليزية مستعملة فى الدارجة المصرية بمعنى يقشيش .

والبت صاحبتى بتاعة المستشفى بتأخذ منى ميت جنيه فى
الشهر عشان تغطى على ، بت مصلحجية ماتعرفش غير نفسها .
أنا كل يوم بعدى عليها وأغير عندها ، بس النهاردة ماكنش ينفع
أعدى عليها فاضطريت أخذ تاكسى عشان أغير فيه . . أى أسئلة
تانية يا معالى وكيل النيابة .

قلت لها يا ستى أنا ولا وكيل ولا نيابة ، ولو شفت وكيل نيابة
حَقَّع من طولى . . بس بيقولوا طبأخ السم بيدوقه ، وأنت غيرتى
فى عربيتى وكنت عايز أعرف السبب . وإن عرف السبب بطل
العجب . . وشكرتها أنها حكتنلى .

مش بدمتك يا أستاذ حكاية غريبة؟

عملها . الأمريكان يقولوا يمين نروح يمين . . شمال . . نجري شمال . . بس ده كان مهم الفترة اللي فأت عشان ناخذ نفسنا واقتصاد البلد يشد حيله شوية ونعرف نقف على رجلينا . . والراجل بصراحة عرف يخرج البلد من أى دروب Drop .

لكن الحرب جاية جاية . . الإسرائيليين مش حيقدرُوا ما يحاربوش ، السلام حيموتهم وهما عارفين كده كويس . . عمالين يقولوا شكل للبيع . . عينيهم على سوريا وعلى العراق وعمالين يدوا حقن فى إيران ومولعين فلسطين نار . . عايزينها تولع عشان ياخدوا فلوس أكثر من الأمريكان وعشان يصهينوا شبابهم أكثر . . لو المسألة رِيحت كل اليهود حيرجعوا لأوربا تانى .

يعنى فى الآخر حيلفوا ويرجعوا علينا، مش بكرة حيبقى بعد بكرة فكل واحد دوره فى البلد إنه يجهز ابنه للحرب . . لأنها جاية جاية . . لازم ندّى دلوقتى للجيش بتاعنا الروح اللي أنا حاربت بيها من بعد ما دخلت الجيش من سنة ٦٨ لسنة ١٩٧٣ .

ده أنا عندي واحد قريبي ظابط فى الجيش . . ظابط شاطر جدا وطلع الاتحاد السوفيتى دورات تدريبية . . الجيش صرف عليه تمام التمام وسفره أكثر من مرة لغاية ما بقى كفاءة عالية . .

عارف دلوقتى الظابط ده شغال فىن ؟

شغال فى دار للقوات المسلحة فى مدينة نصر . . بيعمل إيه ؟

(١٢)

كنت بدردش مع السواق . . وطلع زملاوى قديم . . كان بيروح الاستاد وهو صغير عشان يتفرج على طه بصرى ومحمود الحواجبة وعلى خليل والشباب الورور حسن شحاته وفاروق جعفر . . والسنة دى (فى شتاء ٢٠٠٥) الزمالك عمال يتغلب من كل الفرق .

فحاولت أخليه أهلاوى زبى لكنه قاللى الزمالك حالته مضعضعة وعمال يكسكس لورا محتاج حد يقف معاه مش زى الأهلى فى العلالى مش محتاج ولا واحد يشجعه . . الزمالك عامل زى مصر كده لازم كلنا نقف معاهها عشان تبطل كسكسة لورا .

سألته إزاي نقف معاهها ؟

السائق : نقف مع مصر إن إحنا نجهز ولادنا للحرب . . صحيح إن مبارك قدر يدير الدفة من ساعة ماجه عشان مصر ماتدخلش فى أى مواجهة مع أى حد، وبصراحة برافو عليه ، دى أحسن حاجة

ييعمل حفلات ويشترى أكل ويقدم أكل . . حولوه شيف فى مطعم . .

شوف المصيبة لما تحول ظابط ، البلد صرفت عليه آلاف الآلاف وتخليه جرمون . . المصيبة إنه مبسوط قوى وفى منتهى السعادة بوضعه دلوقتى .

إنت فى رأيك ح تقدر نستنى كام سنة كمان من غير حرب ؟
أنا : ماعنديش أى فكرة .

السائق : أنا رأيى مش أكثر من عشرة . . خمستاشر سنة كمان . . يعنى أنا عندى ابن عنده عشر سنين ، لما يتخرج من الجامعة حتكون الحرب اشتغلت بيننا وبين إسرائيل .
(بعد فترة صمت) .

المشكلة فيهم مش فينا . . هما اللي مش حيقدرُوا على السلام وإحنا ماينفعش نعمل سلام مع نفسنا . . السلام ده لازم نعمله مع حد تانى ولا إيه ؟

(يضحك من نكته) .

أنا شخصيا عمال أشرح لولادى الموضوع علشان لما تدق الطبول تبقى ودانهم جاهزة عشان يسمعوا دقتها .

(١٢)

عند مرورنا أمام أسوار جامعة القاهرة ، بُحت لسائق التاكسى بحينى الجارف لأيام الكلية ، واعترفت له أن أحلامي داخل هذه الأسوار لمصرنا ما زالت ترج أسوارى حتى هذه اللحظة رغم مرور عقدين من الزمان على تخرجى فيها ، وأن معظم من خان داخل هذه الأسوار قد استلم مفاتيح أبوابها ومعظم من حلم اندكت قلاعه بالمناجيق .

السائق : وإنت كنت فى أنهى كلية ؟

أنا : اقتصاد وعلوم سياسية .

السائق : يعنى حضرتك درست سياسة .

أنا : أبوه .

السائق : طب عال فرصة عظيمة قوى . . علشان أنا من زمان كان عندى سؤال نفسى أسأله .

أنا : وإيه هو السؤال احتمال أقدر أجاب ؟

السائق : يحصل إيه إن إحنا نيجى ونقول لأمرىكا إنتى عندك

سلاح نووي وعندك أسلحة دمار شامل ولو ما تخلصتيش من كل الأسلحة دي، ح نقطع علاقتنا بيكي وح نعلن كمان الحرب عليك . . وح نضطر نستخدم القوة العسكرية عشان نحمل كوبا ودي دولة صغيرة . . ولازم نخللي بالنا عليها .

طبعًا الكلام ده كده وكده . . فنعمل موقف في العالم . والعالم يضطر يقف معانا زى ما وقف معاهم لما قالوا نفس الكلام على العراق . . وزى لما يقولوا دلوقتى على إيران . . أنا مش بقول إن إحنا نحاربهم . . طبعًا إنت أكيد فاهمنى . . إغما نقول نفس الكلام اللى هما بيقلولوه بالظبط على دول العالم . . يعنى مثلاً نطلب نراقب الانتخابات الأمريكية عشان إحنا مش ضامنين سلامة إجراءات الانتخابات بتاعتهم، ونطلب يبقى فيه مراقبة دولية على صناديق الانتخاب، وبعدين ح يبقى عندنا حق في الكلام ده . . ما كل الناس في أمريكا وفي العالم اتكلموا إن فيه تزوير في انتخابات بوش وإن أخوه في الولاية بتاعته زور الانتخابات وكسبه . . فإحنا نقول إننا لازم ندافع عن الديمقراطية ولازم نبعت من عندنا قضية مصريين عشان سلامة العملية الديمقراطية . .

إنت عارف لو عملنا كده . . ح نخليهم يفهموا همه بيعملوا إيه في الناس . . وح نخرج النار اللى في صدورنا دي . . زى بالظبط لما يبقى عندك كارثة ومالهاش حل فتبيع مع أى واحد، تلاقى نفسك هديت . . والكارثة فاضلة هي هي .

ويمكن برضه، نرفع قضية على أمريكا إنها بتدعم الإرهاب الدولى ويتقف مع الدول اللى مش ديمقراطية ونجيب أدلة . وحضرتك عارف سهل قوى تجيب أدلة بالذات في الموضوع ده . وبعدين لما تعمل حركة زى دي . . تبقى أنت مع الديمقراطية وضد الإرهاب وتلاقى شوية بلاد وقفت معاك ضد أمريكا .

ويمكن كمان نطالب بفرض عقوبات اقتصادية ضد أمريكا لو مانتزمتش بالكلام ده . . يعنى ناخذ الكلام اللى رايس بتقوله كل يوم في وش كل دول العالم الغلبان ونقولوا ليهم هو هو في وشهم .

وأهم حاجة إننا كلنا نلغى كلمة الأمريكان، ونقول أبيض بروتستانتي أيرلندي من أمريكا، أسود مسلم من أمريكا، أسياني من أمريكا، أبيض كاثوليكي من أمريكا، أسود بروتستانتي من أمريكا، زى بالظبط ما هما يقولوا الأيام دي مات ستة شيعة من العراق واثنين سنة من العراق وولاد الكلب بتوع الجرايد بتوعنا بيكرروا نفس الكلام، وطبعًا تلاقىهم يقولوا قبضى من مصر ومسلم من مصر، وطبعًا لازم نطالب بعلو صوتنا إننا ندافع عن حقوق السود في أمريكا، ونرفع قضايا لو واحد أبيض إسكتلندي من أمريكا قتل واحد أفريقي أسود من أمريكا، طبعًا لازم نقلب الدنيا على الأقل ده أفريقي زينا، يعنى العلاقة بيننا وبينه أكبر بكثير من علاقة أبيض طلياني بحسنة في خداه من أمريكا بواحد

قبطى من مصر . يعنى حماية حقوق الأقلية السوداء هناك ده دورنا
ولازم نتدخل فى كل صغيرة وكبيرة .

أنا عارف إن أنا عمال أزيد وأعيد مستنى إنك ترد على وأنت
ساكت ما تردش .

أنا : والله بافكر فى كلامك .

السائق : أصل أنا مشغل الراديو طول النهار وكل يوم عمال
يتسّم بدنى بكلام الأمريكان . . حاجة تخللى الواحد يخرج عن
شعوره . . الكلام ده خطير جدا لأن الناس ح تنفجر قريب ، إحنا
بنأكلكم . . إحنا بنشخخكم ، اعملوا كده . . ماتعملوش كده . .
ح نفرقع قريب خلاص . . فجتلى الفكرة دى . . إن إحنا نعمل
فيهم زى ما همه بيعملوا فينا . . واللى بيته من قزاز ما يحدش
الناس بالطوب . . ودول بيتهم من قزاز مشرخ ضارب فيه
السرطان .

أنا : طب ما تبعت الاقتراح ده .

السائق : يا عم أنا ببصع بس . . طق حنك يعنى . . هما
مستعدين إن الأمريكان يعملوا فينا أى حاجة . .

هو الاقتراح اللى ممكن يعجبهم إن الأمريكان يحطوا كاميرا فى
كل بيت مصرى عشان يراقبوا الانفجار السكانى .

(١٤)

كان السائق هذه المرة نوبيا ، من النادر جدا أن تصادف سائقا
نوبيا فى القاهرة . . أمر فى منتهى الغرابة . . لماذا لا يعمل النوبيون
سائقى تاكسى . . خاصة أنهم يعملون سائقين فى شركات أو لدى
أفراد أو فى سفارات وهيئات دولية . . لا أعرف السبب ولكن
الأمر يدعو للتأمل . .

كان نوبيا شابا . . علمت منه أنه جاء حديثا إلى القاهرة
ويحاول الاستقرار بها ، وظللت أشرح له طبوغرافية القاهرة ،
أيوه يمين من هنا على شارع شريف ، تعرف شريف ده ، ده
كان جد الملكة نازلى ، وبعد كده يمين فى يمين على صبرى أبو
علم ، صبرى باشا بقه كان وزير عدل ، أيام ما كانوا بيقلوا
إمشى عدل يحترار عدوك فيك ، على طول على ميدان
سليمان باشا ، التمثال تمثال طلعت حرب ، بس لسه وبعد
خمس سنين بنقول على الميدان والشارع سليمان باشا ، اللى
هو سليمان الفرنساوى جه مصر وأسس الجيش المصرى الحديث
مع محمد على وابنه إبراهيم ، هنا فى القاهرة الدولة تقعد تغير فى

أسماء الشوارع والناس ما تعرفش، تعدى سنة ولا عشرة ولا خمسين، والناس على قديمه، الشارع ده الإتكخانة، وده شامبليون، كل دول أساميهم إتغيرت، لكن الحكومة فى وادى وإحنا فى وادى، والله ما أعرف ولا حد يعرف أساميهم الجديدة اللي بقالها ييجى خمسين سنة. بس سييك إنت، الأسوانلية دول أحسن ناس.

السائق: ربنا يخليك... ده من ذوقك يا أستاذ.

أنا: وإنت مئين من أسوان؟

السائق: يعنى كنت بين أسوان نفسها وأبو سمبل.

أنا: وكنت بتشتغل إيه هناك؟

السائق: يعنى كنت بلطش فى كل حاجة... وبعد كده اشتغلت شوية فى توشكى.

أنا: والله!!... ده المشروع القومى بتاع الأيام دى.

السائق: لا. ولا قومى ولا حاجة... ده مشروع مات خلاص.

أنا: مات إزاي؟

السائق: إحنا كان عندنا أمل كبير قوى فيه... وحسينا إن الدنيا أخيراً ح تبسّم لنا ولكن للأسف خلص خالص... وأنا إيه اللي جابنى على مصر مفيش حاجة تتعمل هناك... خلاص.

أنا: لو اللي بتقوله ده صحيح تبقى كارثة.

السائق: اللي بقولهو لك ده صح مية فى المية... الموضوع بالنسبة لنا كناس ساكنة هناك بخ، يعنى ببساطة شغل لبنا مفيش. بس كارثة ليه كف الله الشر؟ ما الدنيا سواقى فلابة... مافيش كارثة ولا حاجة.

أنا: لأ مصيبة طبعاً... ده مصر صرفت فى المشروع ده مليارات.

السائق: مليارات... طب ما كانوا قسموا الفلوس دى على الناس... إحنا مش سبعين مليون... يعنى نيجى كده حوالى عشرة مليون عيلة كانوا إدوا لكل عيلة ألف جنيه... كنا حتقعد ندعى للحكومة بيهم لغاية ماغوث، وإنت مش واحد بالك إن حتى فى الجرايد مايقاش فيه كلام خالص على الموضوع ده... بعد ما كانت أخبار توشكى نازلة عليك من أى حنفية تفتحها... دلوقتي تفتح المدش حتى ما تلاقيش ولا نقطة مية واحدة عن توشكى.

أنا: وإنت بقى لك قد إيه فى القاهرة؟

السائق: بقى لى ٣ شهور... إحنا جينا... ٨ شباب مع بعض أجرونا أرضة فى بولاق الدكرور بثمانين جنيه، كل واحد عشرة... وأنا اتعرفت على القهوة على صاحب العربية دى... وأنا طول عمري بأسوق وكنت عامل رخصة مهنية للزمن... عملت شوية

إجراءات وثبت إقامتى هنا فى مصر . . وواخذ منه العربية دى
وردية واحدة فى اليوم . .

أنا : وواخذ الوردية بكام؟

السائق : بستين جنيه . . العربية كويسة زى ما إنت شايف . .

وهو يجربنى ، بس إن شاء الله خير . .

أنا : وناوى تكمل فى مصر؟

السائق : وده سؤال برضه وأنا إيه الذى يرجعنى هناك تانى؟

(١٥)

كنت واقفا أمام كلية رمسيس الجديدة فى شارع أحمد لطفى
السيد حيث مدرسة أولادى . . وكان الشارع مزدحما . . وكان
هناك عدد كبير من أتوبيسات النقل العام تضخ أطنانا من العادم فى
وجهى وكدت أختنق من حجم التلوث الذى كان يحيط بى ،
وتساءلت عما تفعله معشوقتى القاهرة برثة أبنائى ، ووجدت
ناكسى يقترّب منى ويكاد يتوقف فرحة بوجود زبون . . دخلت
دون أن أحدد له وجهتى كما جرت العادة . . ووجدته يدخن
سيجارة وينفث فى وجهى دخانها .

لم أتحمل منظر هذا الأفعوان الذى يتراقص عبر الهواء متجها
نحو نخاشيشى ، وأرسلت رتى إلى عقلى إنذارا شديد اللهجة
لينصرف فوراً لوقف مشهد الرقص الصامت للدخان ، تفكرت
قليلا وأدركت أننى لو طلبت منه بذوق أن يطفى السيجارة رحمة
بصدري ، لرفض طلبى بفعال ، فقررت تجربة الصوت الخشن ،
ربما يتصور فوراً أننى ضابط ويتخاذل أمام سطوتى ويرمى
بالسيجارة .

أنا: (بصوت جهم) ارم السيجارة دى . . مش كفاية الهباب
اللى بنشمه . .

نظر نى متفحصاً . . ووضع وجهى فى كفة ووجه الضابط فى
كفة وبدأ يزن ما فى الكفتين بميزان أحكامه . . ثم ألقى
بالسيجارة من النافذة . . وأدركت أنا أن وجهى يمكن أن يكون
وجه ضابط .

أنا: (مستمرًا فى لعب دور الخشونة) اطلع على العجوزة .

السائق: من عينيا .

كنت أعلم أنى لو فتحت فمى بكلمة فسوف يظهر المستخفى،
وسوف يبدأ السائق فى التدخين من جديد فالتزمت الصمت .

السائق: إحنا تحت أمرك يا فندم . . بس تصدق بالله .

أنا: لا إله إلا الله .

السائق: أنا كنت شغال عند واحد مليونير وكان مرتبى ٧٠٠
جنيه فى الشهر ده غير الهدايا والهدوم والعينية والذى منه . .
وسبت كل الهنا ده علشان كان ممنوع أدخن . . باشتغل سواق
تاكسى طول النهار وطالع عين عيني علشان أبقي حر وأدخن
براحتى بس علشان خاطر سعادتك رميت السيجارة . .

دى مارلبورو والله .

أنا: تعيش .

السائق: أصل أنا سعادتك شربت السجاير على كبر، يعنى
وأنا فى مرحلة ثانوى كده، وبعدھا دخلت الجيش من ٧٣ لـ ٧٦
ساعتها كانوا بيوزعوا علينا السجائر ببلاش، كل عسكرى له علبة
فى اليوم، الدخان ده كان منحة من القذافي . . من ليبيا يعنى،
للمقاتلين المصريين، أنا قبل الجيش ما كنتش بدخن كثير، طيارى
يعنى، أهلى وأنا فى ثانوى ما كانوا يعرفوا إن أنا بدخن، وبعد
ما خرجت من الجيش كانت العلبة المالبورو بـ ٤٣ قرش
ونصف، وكان المصرى ما بين ١٥ و ٢٠ قرش ومسكت فى
المارلبورو من ساعتها، دلوقتى المالبورو بـ ٥، ٧ جنيه
والكل يوباترا بقت بـ ٥، ٢ ج، يعنى خراب بيوت ولكن تقول إيه
سعادتك . . مزاج .

.....

طب أحكى لسعادتك قصة غريبة قوى . . أنا من أسيوط . .
أهلى قالولى كفاية كده ولازم تتجوز . .

قلت لهم ماشى . . قالوا لا تتجوز من البلد . . وخدونى على
هناك ورحنا قابلنا بنت قريبتى . . وأنا بقه نظام شغل مصر خدت
معايها جاتوه . . حاجات طبعا مايتحصلش هناك . . دخلت عليهم
بالجاتوه، هما استغربوا أوى، بس مش عارف إيه اللى حصل . .
ما استريحنش للعروسة، ما حصلش بينى وبينها مغناطيس . .
اعتذرت بأى شكل . . هما فهموا، راحوا باعثن الجاتوه على بيت
عمى، أصل أبويا كان عايش فى مصر من زمن وما عندوش بيت

هناك، وأنا مروح قابلت بنت خالى فى بيت خالى . . المغناطيس
اشتغل وشدنى ليها وشدّها لى، ومشى بيننا . . أهلى ما صدقوا
مفيش يومين ورحنا قاريين الفاتحة . كانت بنت جميلة وبشتغل
مدرسة فى مدرسة ابتدائى هناك .

رجعت أنا مصر وقعدت أفكر . . يا واد لو اتجوزتها حنكتر
مصاريفك وأنا أصلا اللى بأجيبه ما بيقضيش . . وحاجيب قمن
دخانى منين . . وقمن الكيف منين . . لامرأخذة يا باشا . . إحنا
بنلّف مرة واحدة بس فى الأسبوع . .

قعدت أقلب الموضوع فى دماغى ولقيت نفسى لو اتجوزتها
حاضطر أبطل تدخين وأبطل كيف . . ما أنا شايف اللى حواليا
عاملين إيه . ورحت رايح البلد من ورا أهلى، وفاسخ الخطبة . .
ومن ساعتها ماكررتش الحكاية دى . .

أعيش حر، أدخن براحتى، ألف براحتى، ماحدثش ليه عندى
حاجة .

ماأخذلك سيجارة يا باشا . . دى مارلبورو . . حتى شوف
العلبة أهى .

(١٦)

كان يبدو على ملامح السائق حزن لا تُرى نهايته، حزن تعدد
حتى ابتلعه، وكأن هموم الدنيا قد تجمعت وتكتلت وشكلت فى
النهاية كرة ثقيلة هبطت إلى روح هذا المسكين . . يكفى مجرد
النظر إليه للتأكد من أن هناك كارثة قد حلت به .

سأته عن سبب حزنه الدفين فأجاب :

السائق : والله ما أنا عارف أعمل إيه ولا أتصرف إزاي . .
مخى عمال يودى ويجيب ومش عارف أتخذ قرار . . أنا
حاتجن . . حاسس إن مخى حيفجرجر . .

أنا : فيه إيه بس ؟

السائق : الحكاية إن عندى دورة مدارس . . وواحد ست عيال
بس والعيل بيدفع ٨٠ جنيه فقط لا غير فى الشهر . . من يومين أبو
اتنين معايا ولد وبنت دخل السجن ولا اتقبض عليه مش عارف
بالظبط، رحى إمبراح أخذ فلوس الشهرية، أمهم قالت لى على
اللى حصل وطلبت منى استنى لما يخرج بالسلامة .

دورات المدارس عشان تبقى جايبة تمنها بناخد سبعة ولا ثمانية
وأنا معايا ستة . . وفي نفس الوقت الولد والبنت حيعملوا إيه؟
أهمهم منقبة وما يتخرجش من البيت ، مراتي بتقول لى ده شغل
والشغل شغل ، قول لها يا تدفع يا مش ح توصل العيال ، والولية
أهمهم خلقت لى على المصحف إن ماعندهاش فلوس تاكل وإن
الصبر مفتاح الفرج وقدم السبت تلاقى الحد .

مش عارف أتصرف . . ضميرى بيقول لى لازم أوصل العيال
وفى نفس الوقت أنا غلبان غلب ، محتاج حد يرمى لى إن شا الله
عضمة . . الدورة حتخسر معايا مية المية . . إنت إيه رأيك يا
باشمهندس؟

أنا : أنا صعب جدا بيتقى عندى رأى فى الموضوع ده . . اللى
إيده فى المية مش زى اللى إيده فى النار . .

السائق : لا بأمانة لو كنت مكانى كنت عملت إيه ؟

أنا : أنا رأى اعمل الخير وارميه البحر . . ووصل العيال .

السائق : أبويا الله يرحمه كان دايمما يقول اعمل خير خير جمع
لك خير . . عامل زى الصوت وصدى الصوت لو ما طلعتش
صوت عالى من قلبك مش حتسمع صده . . وكمان الخير لو
ما عملتش خير من قلبك للناس عمر ما خير جعلك خير . .

الله يرحمك يا أبويا .

بس أبويا كان عايش فى زمن ثانى . .

زمن كان بيروح فيه من الشغل الساعة ثلاثة بعد الظهر ويفضل
قاعد معانا . .

أنا بشوف عيالى من الجمعة للجمعة ، ده إذا شفتهم .

طلب نو وصلت العيال الشهر ده وأبوهم ما طلعتش ، ح ستنى قد
إيه؟ ما هو الخير برضه ما ينفعش يبقى على طول . . دى مراتي
يا باشمهندس دبت معايا خناقة للسما لما قلت لها إمبارح . .
أوصلهم وخلاص . . وكمان بصراحة أنا بحب قوى البت
أمنية . . عندها خمس سنين وشبه بنت أختى أسماء بالظبط . .
بت جميلة ودمها خفيف وهادية شفت عيلة شقية وهادية فى نفس
الوقت؟ أه ، هى دى بقى أمينة . . والله ما أنا عارف أعمل إيه؟

عند نزولى من السيارة طلعت منه أن يتخذ أى قرار يشاء ويلتزم
به وآلا يفكر فيه بعد ذلك .

أخذ منى الأجرة . . ولم ينظر حتى إليها . . ولم تكن حالته
أفضل كثيرا منها لحظة دخولى .

أهرامات الجيزة هي الأثر الوحيد الباقي من عجائب الدنيا السبع . . نموذج للروعة والكمال ، عجيبة وغريبة من الغرائب .

وهذا السائق فؤاد بطوله الشاهق وعوده الأرفع من عود القصب هو أحد عجائب السائقين السبع . . سائق تاكسى ومتخصص في البورصة ومضارب عتيق ونجم النجوم ومحور اهتمام أقربائه وأصدقائه ؛ لأنه جعل من بعضهم أغنياء في أيام ، ومراقب بعيني الصقر . على حد قوله . لأى تحرك فى أى سهم . . عالم البورصة وحركة الأسهم هي عالمه الأول ثم يأتى عالمه الثانى التاكسى .

فؤاد : البورصة مثل مقامرة إنما مغامرة يعنى فرق نقطة أو فرق حرف واحد . . وإنت عارف لو دخل فى الدم مش ممكن يطلع تانى . . أصعب بكثير من تبطيل السجاير .

أنا : طب ما تتفرغ للموضوع . . ده صاحب بالين كدآب .

فؤاد : أنا لى بال واحد كله فى البورصة إنما السواقى مش

محتاجة بال محتاجة خبرة وأنا خبير وبعدين السواقى فى دى برضه ودى شغلتنى الأصلية اللي باكل منها عيش . . والعربية دى عربيتى مش مأجرها ، بس فلوس البورصة دى عاملة زى الحلو . . السواقى بتجيب فلوس الأكل . . لو ما عندكش فلوس تجيب الحلو . . إن شا الله ما الواحد أكل حلو . . المهم إنه ياكل أصلا ، ولو معاك ، كل حلو . . فلوس البورصة مش مضمونة ممكن تطلعك فجأة لفوق وبعدين تخفص بيبك الأرض فجأة . .

أنا مثلا بألعب بفلوس حوالى عشرين واحد من أهلى وأصحابى . . واحد من كل واحد منهم مبلغ من زمان وبعد كده بتقابل على القهوة . . وأقعد أحكى لهم أنا حاسم إيه . . وبعدين فيه ثقة . . مدينى فلوس من غير كمبيالات ولا حاجة . . أهم حاجة الثقة وأنا الحساب فى شركة السمسرة باسمى لوحدى . .

أنا : يعنى إيه حسابك فى شركة السمسرة أنا أصلا ماليش فى اللعبة دى خالص .

فؤاد : بص يا سيدى . باختصار . إنت لازم تروح الأول تفتح حساب باسمك . اسمك بيتكود . اسمها كده بيتكود يعنى بتسجل فى شركة مصر للمقاصة . . وبعدين تشوف عايز تشتري إيه وتبيع إيه ، وتبلغ الديلر Dealer بتاعك . . أنا بروح قدام شاشة البورصة فى شقة تبع البورصة فى شارع البورصة بوسط البلد . .

وأشوف الحركة عاملة إزاي وأشترى وأبيع ، وبالليل بدخل على إنترنت كافيه فى مواقع بتديك الأسعار بس متأخرة ربع ساعة زى أراب فايننس دوت كوم . . تدخل كود الشركة اللى عايز تعرف سعرها وتعيش حياتك .

أنا : ياه ده إنت متخصص بجد .

فؤاد : اسأل على . . ده كل الناس بتيجى تسألنى أشترى إيه وأبيع إيه .

أنا : وبتكسبهم ؟

فؤاد : والله من كام يوم خربت بيتهم وبيتى ، يوم الثلاث اللى فات . . يوم ما يتنسيش ، كان ١٤ مارس . . أنا متعود إن أنا باسوق الصبح بدرى وعلى نص النهار بروح أشوف إيه الأخبار . . لقيت لك البورصة بتهار . . وأنا كنت شارى للشلة بتاعتى فى شركتين . . النساجون الشرقيون . . وحديد عز . . ولقيت السهم عمال يقع . . النساجون كنت أنا شاريه بتلاثة وثمانين جنيه ، لقيته عمال يقع قدامى لغاية ما وصل لواحد وستين جنيه . . أنا قلت حيكمل وقيع ولقيت لك حديد عز اللى أنا كنت مشتريه بتسعة وسبعين جنيه وقع الخمسة وخمسين جنيه . . قلت خراب بيوت مستعجل وأكيد البورصة وقعت والأسعار ح تكمل فى النازل . .

قلت أخرج متعور بدل ما اتشخرم . . بعث بخسارة حوالى

٣٠٪ . . أنا كنت يوميه بالعيب فى حوالى ثلاثين ألف جنيه . . خسرت حوالى تسعة آلاف جنيه فى ساعتين .

ولقيت ركبى بترعرش ومش عارف أصلب طولى . . قعدت على القهوة وأنا حاسس إنى ح موت . . وبعدها رحت نمت . . صحيت من النوم لقيت لك الأسعار طلعت تانى على ما كانت عليه . . بصراحة ضحككت وسققت على المعلم اللى لعبها صح . . الديناصورات ديناصورات والدبان دبّان . . وأنا دبّان وبزن علشان أعيش ولكن عرفت يومها إن أنا بزن على خراب عشى .

لما الأسعار وقعت . . كلنا بعنا . . فيه حد اشترى . . تقول لى مين اللى اشترى ؟ أقولك طبعا الناس اللى عارفين إن الأسعار مش حتقع تانى وأنها ح تطلع . . منين جابوا المعلومات إنهم يشتروا . . دول بقى الحيتان اللى البلد واقفة وراهم . . شوف حضرتك أما السهم يقع حوالى عشرين جنيه وإنت عندك المعلومة . . تروح داخل مشترى مليون سهم - خللى بالك إن كل شركة من دول معدية الخمسين مليون سهم - وآخر النهار السهم رجع تانى لسعره رحت بايع . . كسبت عشرين مليون جنيه فى ثلاث ساعات . . شغل كبير . . فى يوم واحد خسروا الدبان اللى هربوا من المذبحة . . وكسبوا الكام حوت الكبير قوى . .

وهو حضرتك بتكتب إيه من الصبح ؟

أنا : بكتب الأرقام اللى إنت عمّال تقولها لى . . هريتنى أرقام .

فؤاد: إيه عايز تلعب إنت كمان؟ هات فلوسك وأنا أدخلك
فى المجموعة بتاعتى .

أنا: أنا لا بتاع مقامرة ولا بتاع مغامرة . . وبينى وبينك أنا رأى
إنها مقامرة ومغامرة . . ورأى إنك تقدم أنت كمان استقائتك من
الحكاية دى طالما الكبار واكلينها .

فؤاد: ما هي دى سنة الحياة علشان الكبار يكبروا لازم إحنا
مانبطلش زن . . آمال هما حيكبروا إزاي ؟

(١٨)

كنت مدعوأ أنا وولدى التوأم (بهاء وبدر) إلى الغداء عند
صديقنا سحر كنا نحن الثلاثة فى متهى البهجة والانشاء ، أنا
لأن سحر طباحة ماحصلتش ، وبهاء وبدر لشوقهم للقاء أبنائهما .
وركبنا تاكسي وانطلقنا .

تفحصنى السائق ملياً ثم نظر لولدى الجالسين فى الخلف ،
فتفحصته أنا الآخر . . كان رجلاً ضخماً . . جذع شجرة جميل
جالس بجانبى ، رأسه يلامس سقف السيارة ، والمقود بين يديه
لعبه أطفال صغيرة . . أما وجهه فكأنه قُذ من صخر .

السائق : ولاد سعادتك طبعاً؟

أنا : أيوه ولادى .

السائق : ربنا يخلي . . نعمة من عند ربنا . .

أنا : ربنا يخليك .

السائق : الله يحفظهم لك .

أنا : الله يحفظك .

السائق : وعندهم كام سنة ؟

أنا : حينموا عشرة بعد كام شهر .

السائق : ربنا يديهم طولة العمر .

لم أرد لأننى كنت قد مللت هذه الأسطوانة المشروخة التى كان يمكن ألا تنتهى . . ولكن بعد فترة صمت قصيرة واصل السائق .

السائق : أنا برضه مخلف ولد .

أنا : ربنا يبارك لك فيه .

السائق : الحمد لله . . الحمد لله . . كان نعمة من عند ربنا . . أنا أصلى بعد ما إتجوزت . . اكتشفنا إن فيه مشكلة فى الخلفة . . قعدنا نجري هنا وهنا لغاية ما ربنا كرمنا بعد سبع سنين وخلصنا حسين ، سميته على اسم سيدنا الحسين عشان يمشى على خطاه .

ولكن أه (يطلق السائق أهة مشروخة من القلب) بعد ما تم أربع سنين . . اكتشفنا إن عنده سرطان . . وهو راقد دلوقتى فى معهد الأورام ، سعادتك ماتت خيلش حجم المصاريف التى اتصرفت عليه . . مدبحة عن حق . . جريت فى كل ناحية عشان أجيب فلوس ، شحت من المسجد وكتر خيرهم إدولى فلوس ولكن ماقتش ، ولاد الحلال قالوا لى روح الكنيسة . . قلت لهم بس أنا مسلم . . قالوا لى روح برضه . . رحت وإديتهم التقارير الطبية . . وراحوا كتر خيرهم مدين لى فلوس برضه . . عمال أشحت من

كل اتلى حوانيا بس مفيش فايدة . . الصرف على العلاج أكثر . . إيه ما استحملتش . . جالها القلب ، وهى قاعدة فى معهد القلب برضه .

أنا : إيه ده . . صحيح المؤمن منصاب .

السائق : الحمد لله على كل شىء . . ربنا يخلي لك ولادك ، ربنا يحفظهم لك .

أنا : يا سيدى متشكرين وحالة ابنك ومراتك عاملة إيه دلوقتى ؟

السائق : ربنا يتولانا جميعا . . أنا (يطلق أهة من القلب) لما بدخل عليه فى المعهد . . وألاقيه بيز ققط ويصرخ ويقول أبويا جه . . أبويا جه . . قلبى واللله بينخلع من ضلوعى . . ولما أحضته وأخذه فى صدرى بأقول يا رب يكتب له النجاة . . (قال هذه الجملة بنبرة باكية) . . وأمه مش عارف أعمل لها إيه . . لازم تعمل عملية قلب . . ياللا الحمد لله على كل شىء .

ثم ينظر لأبنائى .

السائق : ربنا يحفظهم لك .

ثم ينظر لى نظرة حنان وتوسل .

ورغم اعتيادى على هذا النوع من السائقين الذين يعملون جاهدين على استدرار العطف كى تعطيهم مزيدا من المال لكن هذا الرجل أثر فى تأثيرا كبيرا رغم يقينى أنه على الأغلب كاذب وأن

تلك القصة ملفقة تماما من أولها لآخرها للحصول على نفحة نقدية سخية في نهاية المشوار، ومع ذلك فقد تأثرت . . لا أعلم لماذا تأثرت؟ محتمل نتيجة أدائه الرائع أو بسبب حجمه المقارب لشجرة الجميز، ومحتمل أن هاجسا داخليا جعلني أقول إن هناك احتمالا ولو قليلا أن يكون صادقا. وعلى العموم نفحته في النهاية مبلغا من المال لمعهد السرطان ومعهد القلب وأى معهد آخر في مخيلته.

وعندما حركت أرنبة أنفي وأنا جالس في منزل سحر، استنشقت الدخان المحمل بروائح اللحم والبصل والقرافة حتى نفذت إلى مسامي، شعرت بحالة سلام وحكيت لسحر قصتي مع السائق . . فلم تندم.

- دي حكاية متكررة جدا . . دي حصلت لى ييجى ميت مرة ما إحنا بقينا شعب شحاتين . . إنت ما سمعتش دي .

- لا .

- اللى ما تسجنش فى فترة عبد الناصر مش حيتسجن أبدا، واللى ما تُغنّاش فى فترة السادات مش حيتغنى أبدا، واللى ما شحتش فى فترة مبارك مش حيشحت أبدا .

قلت لها : اعتبريني شحات . . وهاتى أى حاجة أكلها . واقع من الجوع!

(١٩)

شارع الجيزة وكأنه يوم الحشر، التاكسي لا يتحرك، التلوث يتمدد مع الملل ويجعل الزمن فى حالة ثبات خائف، كلية الطب البيطري على يسارى وحديقة الحيوان على يمينى وطابور سيارات بلا نهاية من أمامى ومن خلفى، وقدّرت أننى سوف أصل إلى مدينة السينما فى شارع الهرم بعد قرنين من الزمان .

لم أتبادل مع السائق أى حوار فالصمت كان ضرورة حتمية لاستكمال دورة التلوث والملل . ولكن السائق قرر فى النهاية كسر حاجز الصمت .

السائق : فيه واحد لسه نازل من شوية . . قال لى إن حادثة خان الخليلي مش عاملها الإسلاميين ولا حاجة . . وإن دي الحكومة اللى عاملها عشان الناس تتعاطف معاها ضد الإسلاميين قبل الانتخابات الرئاسية . ولعلو ماتك فيه أكثر من واحد قالوا لى الحكاية دي . إنت إيه رأيك يا أمستاذ فى الكلام ده؟

أنا : رأيى إن ده كلام فارغ، وقلب للحقايق وقلة أدب . .

الإسلاميين آخر ثلاثين سنة عملوا أكثر من مرة نفس العمليات الإرهابية دى ، اللي بتضر المجتمع وبتضرهم ومستمرين فيها ماتفهمش ليه وماتفهمش مين اللي وراها ومين اللي يمولها؟ وإنت بقى إيه رأيك؟

السائق: الحكومة ضعيفة . . ماتعرفش تعمل الحاجات دى . . لو كانوا بيخططوا ويتكتكروا بالشكل ده ماكانش حالتنا بقت كده . . عشان تعمل عمليات سياسية من النوع ده لازم يبقى عندك جرأة وشجاعة ويبقى فيه تخطيط سليم . . بس إحنا غلابة ما نعرفش نعملها عارف لو الحكومة الإسرائيلية ، كان ممكن تفكر ، لكن إحنا لا ، مستحيل .

أنا: يعنى تنفيذ عمليات قذرة ضد المواطنين فى رأيك قوة . . إيه اللي إنت بتقوله ده؟

السائق: السياسة كده طول عمرها وسخة . . ما إحنا كلنا عارفين إن الأمريكان هما اللي ضربوا البرج بتاعهم ولبسوها فى الإسلاميين ، السياسة شعارها اللي تكسب به اللعب به ، وإحنا داخلين على انتخابات يعنى كل اللعب مسموح به . والحكومة لازم تخلق صورة الإسلاميين زى الزفت علشان الناس تقول إنهم بيخربوا الاقتصاد أكثر ما هو خربان . .

أنا: إنت بتقول إيه؟ مفيش أخلاق . . مفيش قانون . . مفيش دستور . . إنت فاكرا إن إحنا عايشين فى غابة؟

السائق: ليه وإنت فاكرا عايشين فىين ، فى مدينة!! ده الغابة رحمة عن اللي إحنا فيه ، إنت عارف إحنا عايشين فىين؟ أنا: فىين؟

السائق: فى الجحيم .

اللى راحوا انتخبوا الإسلاميين . . رماهم فى جب ماطلعوش منه
من ساعتها . شايف الخلاوة ، فى انتخابات حرة واحدة عرف
يخلص الليلة .

هنا أظن إن الإخوان مش ناويين يعدوا الخط الأحمر ويطلعوا
اللعبة المرسومة صح .

بس بصراحة هما رغم إنهم مش نازلين فى كل الدواير إلا إنهم
طأعوا عين الحزب الوطنى . . اضطرت الحكومة تزور فى كام
دايرة زى فى الدقى مع آمال عثمان ، كان قدامها حازم صلاح أبو
إسماعيل ، كان كسبان وفى الآخر طرمخوها وكسبوا آمال
عثمان ، وزى اللى حصل فى مدينة نصر مع السلاب وفى كام
دايرة كمان . .

أنا أصلا من الفيوم . . بلد يوسف والى . . هناك الحزب
الوطنى ما عرفش يعمل حاجة . . الإخوان اكتسحوه اكتساح . .

بس بصراحة الانتخابات عندنا فيه معلم طبخها صح والكل
نفصل فى الخطوط المرسومة له ، وبقي شكلنا مية مية بلد
ديمقراطية عن حق . . بس تعرف الحقيقة إيه ؟
أنا : إيه .

السائق : إن مفيش ديمقراطية فى أى بلد فى العالم . . طبعا
عندنا مفيش داعى تنكلم ، بس كمان بره . فى أمريكا الناس بتروح

(٢٠)

انتهت الانتخابات التشريعية بحلها ومرها وكوارثها التقليدية
فى ممارسة العنف . . وتمخضت عن اختفاء كل الأحزاب المصرية
من اليسار إلى اليمين وتلخصت نتائجها فى ظهور كفتين هما :
الحكومة والإخوان المسلمين والذين يكتب عنهم فى كل الصحف
جماعة الإخوان المحظورة .

قال لى السائق :

- ما هى لازم تفضل محظورة عثمان يعرفوا يلموهم فى أى
وقت لو حاولوا يزودوها شوية . . لازم يفضلوا وراء الخط
المرسوم ، لو قتلوا عقلهم وقربوا من الخط حيلوا . . أنا
أحكملك قصة ظريفة قوى حصلت فى تونس ، أصل أنا مراتى
تونسية . . فى يوم من الأيام جه ابن على . . الرئيس
التونسى . . قال لك الانتخابات بقت حرة وديمقراطية وخلأ
كل الفيران تطلع من جحورها وراح عامل الانتخابات
ومفيش كام يوم راح قابض على كل الإسلاميين وعلى كل

تنتخب بين حزبين وهما في الحقيقة نفس الحاجة . . زى ما هنا
تروح تنتخب مبارك أو مبارك هما نفس الحزب باسمين ، وفي
أوروبا نفس الحكاية كله شبه بعضه . . الفرق بيننا وبينهم مش فى
الديمقراطية . . لأن دى وهم ومش موجود غير فى الكتب ، ولكن
الفرق فى القانون ، هما عندهم قانون بيتنفذ وإحنا ما عندناش . .
هو ده الفرق .

مايتفعش هناك يقولوا جماعة الإخوان المحظورة ويبقوا هما
الوحيدين اللى واقفين قدام الحزب الوطنى . . هناك محظورة
يعنى محظورة إثمها هنا محظورة وساييسنها تشتغل . . على فكرة ده
مش بس الإخوان ده أى واحد فينا ممكن يتقبض عليه بالقانون . .
أى واحد .

يعنى مثلاً لو وقفتى حيقلك الرخص . .
الرخص سليمة . . حيقلك الطفاية حطعها له حيقلك
بعيدة عنك . . أو فاضية . . أو قديمة طبعاً ما تفهمش عرف
إزاي إنها فاضية ولا قديمة . . ولو عديت من الطفاية حيقلك
معلقات . . طبعاً كل العربيات حاطة حاجات على المراية وده
ممنوع . . لو عديت من دى ، حيقلك أمن ومتانة وأكيد أى عربية
فى مصر مخطوطة خبطة صغيرة فى حنة .

يعنى باختصار عنده ملىون طريقة إنه يقبض عليك ولو
كله سليم وشكلك ما عجبوش عنده الشحري وفى الآخر

عنده قانون الطوارئ اللى بقاله ربع قرن . والله لو دخلوا أى بيت
فى بر مصر يقدروا يطلعوا ممنوعات للرُكَب ما القانون عندنا أستكه
واسع .

يعنى إحنا كلنا محظورين . . وأى واحد فى البلد دى زيه زى
الإخوان ممكن يتلم فى أى وقت . . ربنا يستر علينا .



وقطاع عام وديكتاتورية وقانون طوارئ وبقينا أميركان وشوية
شوية حنفي إسرائيليين وبرضه مش نافع طب ما نجرب الإخوان
واحتمال بنفعوا . . مين يعرف؟

أنا: يعني مجرد تجربة . . ممكن نجرب تلبس بنطلون واسع . .
فميص ضيق . . بس ما ينفعش نجرب في مستقبل بلد .

لبن

السائق: قالوا للأعورح نضربك على عينك . . وبعدين
الأمريكان الواحد مش فاهم لهم حاجة . . يبساعدوا مبارك
ويبساعدوا الإخوان ويبساعدوا المسيحيين اللي عاملين مشاكل
برة ويبدفعوا فلوس للسعودية اللي بتدفعها للإسلاميين اللي
بيعملوا عمليات إرهابية بيها ضد قال يعني أمريكا، لخبطة
جامدة تخلص الواحد يتمخول . . بس أرجع وأقولك لازم
نحرب حكاية الإخوان يمسكوا الحكم شوية ونشرف خيعلوا
إيه . . وأهز نغير الوشوش . وزى ما إنت عارف الغربال الجديد
له شدة، احتمال الغربال ده يشد الاقتصاد بتاعنا شوية . .

بمناسبة شدة الاقتصاد سمعت النكتة دي ؟

أنا: لا

(٢١)

سمك

السائق: أنا، وربنا يغفر لي، مابصليش وحتى الجامع ما
بدخلوش، ماعنديش وقت . . باشتغل طول النهار . . وحتى
الصيام يوم كده ويومين كده ما بعرفش أشتغل من غير دخان، بس
نفسى بجدة الإخوان المسلمين يمسكوا الحكم . . ليه لأ . . باين كل
الناس عايزاهم بعد الانتخابات التشريعية .

أنا: بس لو مسكوا الحكم وعرفوا إنك مابتصليش خيعلقوك
من رجلك .

السائق: لأ ما أنا حابقي أصلى في الجامع قدام كل الناس .

أنا: وأنت عايزهم يمسكوا الحكم ليه؟

السائق: ما إحنا جربنا كل حاجة . . جربنا الملك وما نفعلش
وبعدين جربنا الاشتراكية مع عبد الناصر، وفي عز الاشتراكية
كان برضه عندنا باشوات بتوع الجيش وبتوع المخابرات،
وبعدين جربنا الوسط، وبعدين جربنا الرأسمالية، بس فيها تموين

السائق : يقولك الاقتصاد المصري عامل زى لباس المومس كل
ماثر فعه ينزل تانى .

ثم انفجر ضاحكا .

(٢٢)

كل المصايب اللى حصلت لنا والبلاوى اللى وقعت على
دماغنا كرم واللى حصل فى العراق ده كرم تانى .

يقولك تعرف فلان؟ أيوه . . عاشرته؟ لأ، تبقى ما
تعرفوش . . أنا بقه عاشرت العراقيين دول سنين ، ما يستاهلوش
أبدا اللى بيحصل لهم ده .

كنت عايش فى مدينة الحرية الثانية . . فى حي دور نواب
الضباط . . كنت شغال هناك بيع فى محل . . وهناك النظام إن
كل محل يبقى فيه أوضة للسكن ، ما قولكش على الناس
هناك . . أنا أول رمضان عدت على كنت أنا مع اتنين مصريين
قاعدين ومحضرين الفطار لقيت لك الباب بيخبط فتحت لقيت
الجيران باعنتين لينا صينية الفطار . قلنا لهم الحمد لله معانا
فطارنا . قالوا لنا زوادة . . مش عايز أقول لحضرتك على
الصينية . . اضطررنا نفتح درفتين الباب علشان تعدنى . . لا يمكن
واحد لواحد يشيلها لازم اتنين . . والضرفة الثانية كانت
معصلة وفضلوا مستنيين ، وألا الصينية كانت مش ناقصة

حاجة . . حتى المية الساقعة بالتلج . . وفضلوا يبعثولنا الصينية دى
الثلاثين يوم بتوع رمضان . . كل يوم الأكل أصناف أصناف .

وهناك الصّحاب صحاب بجد . . أنا مرة كنت مسافر على
مصر وكان عندى واحد صاحب اسمه كريم شغال أمن فى
المطار . . لقيتته معدى على فى البيت ، هو اللي صحانى ولقيته
جايلى الفطار ومعه عربية عشان يوصلنى المطار وقعد معايا لغاية
ما دخلنى الطائرة . .

وواحد صاحبى تانى كان شغال فى الاستخبارات العامة . .
وكان عنده محل بقالة جنب سكنى . . والله قاذنى صوابعه العشرة
شمع عشان يساعدنى . . فعلا رجالة وجدعان واللى يقول لك
غير كده يبقى كذاب .

أنا لو على عايز أروح لهم وأحارب معاهم . . أنا حاسس إنى
ابن كلب . . كنت معاهم فى الحلوة ودلوقتى بعيد عنهم فى
المرة . . بس أنا مش ندل . . لكن ما قداميش حاجة ممكن
أعملها . . ربنا على المفترى . . له يوم إن شاء الله .

(٢٢)

من النادر جدا أن يتعرف إنسان على مثل ذلك السائق . .

رجل فى الخمسين من العمر . . متأنق الهندام . . حليق
الذقن . . عطر الرائحة . . صوته عميق وهادئ . . كاهن بوذى أو
زاهد فى الصحراء أو يمكن أن يكون قديساً فى دير ناء .

كنا نسير بسيارته النظيفة أمام جامعة القاهرة ونتحدث عن
المباني القبيحة التى تم إنشاؤها أمام كلية التجارة وكلية الاقتصاد
والعلوم السياسية فإذا به يقول لى . .

انسائى : كل حاجة فى الدنيا دى لها جمالها . . يكفى إنك
تفتح قلبك عشان تشوف الجمال اللي حوالينا . . لكن لو إنت زى
معظم الناس مقفل قلبك ح تشوف التور اللي بيضوى حواليك
إزاي؟ إحنا فى مصر فى نعمة كبيرة . . بلد من أجمل وأعظم بلاد
العالم وإنت عايش فيها ، ولما تفتح قلبك تشوف فى مصر
حاجات ما حصلتش . . ده يكفى النيل . . النيل ده زى ما بيدينا مية
عشان نشرب وناكل ممكن كمان يغسل روحنا ، النظر إليه يطهر
قلبك .

أنا بقالى ثلاثين سنة مقسم اليوم لتلات ورديات وردية
 بأشتغل على التاكسى ووردية أقعد فيها مع مراتى وعبائى
 ووردية أقعد أصطاد فى النيل ، وأغسل روحى وجسمى
 وعينى . . وعلى صفحة النيل باقرأ كلمات ربنا . . بعد الأربع
 ساعات دول بابقى حاسس إنى شفاف وإن ربنا معايا وماسك
 إيدى عشان ماخافش غير منه . لو كل واحد فى البلد دى قعد
 يبص لصفحة المياه ح تبقى حياتنا حاجة ثانية خالص . . مش ح
 يبقى فيه فساد ولا رشوة ، لأن الإنسان الطاهر ما يقدرش يعمل
 حاجة غلط .

أنا كل يوم بأخلص وردية التاكسى وأنا خايف . . خايف على
 ولادى وخايف من المستقبل وخايف من الدنيا وبعد ما أخلص
 وردية الصيد يبقى كلى أمل ، أمل فى بكرة وثقة إنه كل شىء ح
 يبقى تمام وإن ربنا مش ممكن ح ينسانا . ده مصر مذكورة فى القرآن
 وإحنا جند الله . . إزاي بقى ح ينسانا . . مش ممكن .

كان يتحدث معى بصوته العميق الرخيم ، صوت يشبه كثيرا
 صوت كبيرة عائلة «عبد الرسول» فى فيلم المومياة لشادى عبد
 السلام ، صوته بيدولك أنه لا يصدر عن الشخص المتحدث
 ولكنه يصدر مباشرة من الله عز وجل . . كلمات بها إيمان
 عميق نابع من القلب . . إيمان حقيقى بجوهر الحقائق وليس
 بأشكالها المصطنعة .

سوف أتذكر دائما هذا الرجل الجميل كلما تأملت صفحة
 النيل . . وسوف أتذكر دائما أن كل شعور بالخوف سوف يلحقه
 شعور بالأمل فى غد أفضل .

وسوف أتذكر كذلك اسمه الذى سألته عنه قبل مغادرتى
 السبارة : «شريف شنودة» .

الفين سى سى ونازلة بالتكييف وسنتر حتى الكاسيت
اصلى . . شوف مكتوب عليه إيه . . تويوتا .

أنا: لا . . عربية جميلة . . أهم حاجة فيها إنها واسعة . .
وانت بشتغل سواق من فترة .

السائق: (بحدة) لا . . لا . . أنا مش سواق . . أنا خريج كلية
التجارة وباعمل الماجستير دلوقتى . . وباشتغل محاسب فى شركة
أدوية، بس بعد الضهر باخد التاكسى علشان أحسن دخلى . .

أنا: ليه متجوز ولا إيه؟

السائق: إتجوزت بدرى . . الجواز برضه نص الدين . .
وخلفت برضه بدرى . . إنت عارف المال والبنون زينة الحياة
الدنيا، وطبعاً بمرتبى مانقدرش نعيش . .

أنا: لامواخذه فى الكلمة . . بس إنت بتاخذ مرتب كام؟

السائق: أنا باخد رבעمائة وخمسين جنيه فى الشهر، وده
مرتب كويس، عندى زملاء لى بياخدوا ثلثمائة وخمسين، بس أنا
محاسب شاطر . . لكن مستحيل يقضوا . . عملت شيت إكسيل
Excel Sheet بالمصروفات المنزلية واكتشفت إنها معضلة ولا حتى
بيل جينس يقدر يحلها، أنا بدفع إيجار مائة وعشرين جنيه
وكهرباء وغاز وبواب حوالى ثلاثين جنيه . . يفضل لى تلتمية . .
علشان الواحد يعيش بالعافية فى ظل الأسعار بتاعة الأيام دى . .

(٢٤)

يختلف كثيراً هذا الشاب من حيث مظهره ونوع خذاته وماركة
نظاراته الطبية عن الشريحة العظمى من سائقى التاكسى، وسيارته
كذلك ماركتها مختلفة عن كل سيارات الأجرة التى ركبها . .
فسيارات الأجرة لا تخرج عامة عن أنواع محددة من السيارات
جر خلفى . . أهمها الشاهين واللاذ والفيات ١٤٠٠ و ١٥٠٠
والبيجو ٥٠٤، أما السيارات الحديثة التى دخلت السوق بظهور
فكرة التمويل البنكى بالقسط لعربات الأجرة فى منتصف
التسعينات فهى السكودا والسوزوكى سويقت التى يطلق عليها
سوزوكى زفت والهيونداى . .

أما هذه السيارة فمختلفة كسائرها . .

أنا: ماركتها إيه العربية دى؟

السائق: دى تويوتا كريسيда .

أنا: مش منتشرة أوى .

السائق: هى منتشرة فى الخليج . . أصلها غالية شوية، دى

محتاج ثلاثين جنيه في اليوم . . طبعاً لى ولراتى وأنا عندى عقباتك إسلام وسها، طبعاً ده شامل الأكل والمواصلات واللبس والأدوية والمصايب اللى بتطلع للواحد كل شهر ماتعرفش مين، يعنى بقية المرتب بيخلص فى عشرة أيام . . أنا مش عايز أقولك بند اللين بس بيعمل فى مرتبى إيه؟ طبعاً الطفلين لازم يشربوا لبن . . وأمهم بعد الحمل مرتين، جالها نقص شديد فى الكالسيوم والدكتور قال لها لازم تشرب لبن . . حضرتك مش حتتصور إن أنا بدفع ميت جنيه فى الشهر لبن . . ما الكيلو بقى بتلاثة جنيه وربيع . . حضرتك ممكن تقول لى طبعاً إن اللبن ده بتاع الأغنياء . . وعندك حق، بس المدام مش عارف ليه مصممة قوى عليه . . بتقول لى أنا ولادى لازم يشربوا لبن كل يوم، عندها كله كوم واللبن ده كوم . .

بس والله مش اللين بس، كل حاجة بقت ناز . . ده كيلو الفول وصل ثلاثة جنيه . . ولا الزيت بتاع التموين . . الكيلو بقى بتلاثة جنيه ونص . . مش ح أقول لك على زيت الذرة والحاجات دى . . ده الكيلو الواحد فيه وصل لستة جنيه .

يعنى مستحيل على أى حد فى مصر يكتفى بمرتبه . . ماهى المرتبات كام من تلتماية لستمائة جنيه مابتعديش كده . . وده مايكفيش . . إيه الحل؟ يا إما نسرق أو نرثشى أو نشتغل طول النهار . . أنا بشتغل من ثمانية الصبح لأربعة فى الشركة . . وبعدين أطلع آخد التاكسى من الساعة خمسة للساعة واحدة الصبح .

أصل السكة من الشركة لصاحب التاكسى بتأخذ حوالى ساعة مواصلات . . وبروح حوالى الساعة اتنين الصبح . . أتعشى وأنام . .

والحمد لله اللى مخلىنى ما أمدش إيدى لحد . . وأهى ماشية كويس وكلها كام سنة مرتبى ح يزيد، وبعد ما آخذ الماجستير إن شاء الله مرتبى ح يزيد برضه . . الشباب فى الأول لازم يشقى . . وبعد كده يستريح إن شاء الله . .

كان يتكلم عن أمله فى مستقبل مشرق بصورة يقينية جعلتنى أخاف عليه . . أتمنى أن تحنو عليه يد القدر فهذا الشخص جدير بها.



(٢٥)

أنا: حنعمل إيه فى النهائى؟ حنكسب ولا كوت ديفوار
حنكسب؟

السائق: والله أنا ماليش فى الكورة. . ولكن حنكسب إن شاء
الله.

أنا: ما شفتش الماشات ولا إيه؟

السائق: البطولة دى مش بتاعتنا، دى بتاعة الأغنياء بس. .
مابقاش فيه حاجة لينا خلاص. . فى الماش اللى فات بتاع قبل
النهائى. . ابنى إتحايل على أجيب له تذكرة. . ماهو مجنون
كورة. . حاولت أجيب تذكرة درجة تالته مستحيل. . وبعدين
عرفنا إن فيه سواق بتاع واحد فى اتحاد الكورة بيعهم فى السوق
السوداء. . لدرجة إن طلعت نكتة إن واحد لقى مصباح علاء
الدين فطلب من الجنى تذكرة فى ماش مصر. . رد عليه الجنى
وقال له: لا والنبي اطلب طلب أسهل شوية، حاولت أنا أجيب
للواد تذكرة سوق سوداء لقيتها بميتين جنيه. . تصور حضرتك
تالته بميتين جنيه والتانية وصلت تلتماية جنيه، الأولى عدت
الخمسماية. .

يعنى أرخص تذكرة بمرتب واحد فى الشهر، ما أنا بقول
لسعادتك عاملين بطولة للأغنياء فقط، زى كده ما كانوا بيعطوا
على الأفلام للكبار فقط. . بس فى البطولة دى للكبار قوى فقط.

حضرتك شفت المتفرجين فى التليفزيون. . كلهم شكلهم
خواجات. . شعرهم أصفر وعينهم زرق ووشهم أبيض وشكلهم
حلو قوى، ولا بسين حلو قوى، بس شفت حضرتك واحد فقير
فى الملعب يوحد الله. . مفيش. . اللعبة همه الوحيديين اللى
شكلهم من الغلابة وكان من حقهم دخول الاستاد.

ابنى قعد يعيط لى قلت له أجيب لك ميتين جنيه منين. . ده
لازم أبوك يبقى مبارك نفسه عشان يجيب لك تذكرة. . عشان كده
تلاقى نفسى مسدودة شوية على البطولة دى.

وأنا عايز أقول لحضرتك حاجة، عمرها ما حصلت قبل
كده. . المتفرجين دايمًا كانوا همه الغلابة. . كانت تالته وتانية
محجوزة لنا. . بس خلاص إحنا من حقنا بس إن إحنا نلحس
التراب اللى بيمشوا عليه الأغنياء. . وعلى فكرة دى مش بس
البطولة دى. . ده كمان كاس العالم مش حيتذاع إلا بالفلوس. .
تدفع. . تفرج. . إحنا باين علينا ممنوع نشوف أو تفرج على أى
حاجة، الكلام ده ينفع فى بلاد زى السعودية ولا الإمارات. .
لكن عندنا هنا ح ندفع منين؟؟

السائق : حصلت كام حادثة كده . .

أنا : يا سائر ، إيه كفى الله الشر .

السائق : مفيش . . زباين ياخدوا تاكسى ويقولوا له ٦ أكتوبر
وفى حنة مقطوعة يطلعوا له مطاوى وياخدوا اللي معاه ويرموه
على الطريق ويسرقوا العربية . . وفيه واحد قاوم من كام يوم
قطعوه .

أنا : قتلوه ؟

السائق : لا مامتش . . بس خدله يسجى عشرين مطوة فى
جسمه كده . . كان بين الحياة والموت . . اتكتب له عمر جديد . .
المصيبة العربية كان لسه جايها وطبعاً مش متأمين عليها ،
خادوها ولاد الهرمة دول . . وحيقطعوها وبيبعوها قطع غيار .

أنا : وإنت عرفت مين ، انتشرت فى الجرايد ؟

السائق : لا أنا مابقراش جرايد . . أنا لاقى أكل عشان أشتري
جرايد كمان . . لا أنا من إمبابة . . وكنت قاعد على القهوة . .
لقيت شوية سواقين وجاييين ورقة مكتوب فيها الكام حادثة دول
وببوزعوها على كل السواقين وإدوني كذا نسخة عشان أوزعها
أنا كمان على سواقين أنا عارفهم ، عشان كده أنا بصيت عليك
كويس قبل ما أركبك . . أنا ح أوصلك وأروح على طول . . من
يومها وأنا مابحبش أناخر عن الساعة عشرة . . البلد مابقتش

(٢٦)

٦ أكتوبر . . ٦ أكتوبر . . ٦ أكتوبر . . صرخات كنت أطلقها
فى الهواء كى تقنع إحدى سيارات الأجرة بالتوقف ولكن
هيهات ، لا أمل . . كان لدى موعد فى مدينة الإنتاج الإعلامى فى
الساعة العاشرة مساء وكانت سيارتى معطلة . . وتصورت أننى
سوف أجد تاكسى بسهولة . .

ومن صبر نال العلا . . توقف تاكسى . . وتفحصنى جيداً . .
قبل أن يقول لى اتفضل . . تفضلت .

أنا : إيه الحكاية بقى لى ييجى نص ساعة ماحدثش عايز يقف
لى .

السائق : ولا حد كان حيوقف لك .

أنا : ليه إن شاء الله ؟

السائق : بالليل كده وفى حنت مقطوعة وفى ٦ أكتوبر
بالذات الأيام دى صعب .

أنا : ليه ؟ فيه إيه ؟

أمان، الساعة عشرة بالكثير وأروح أقعد مع مراتي وعبالي . .
حانزلك وأسو جر العربية وأطلع جرى على إمبابة . . رينا يسترها
معانا .

أرهبتنى القصة، ولكن أعجبتنى قصة نكاتف السائقين
وثنوزيعهم منشور تحذيرى .

ونزلت مدينة الإنتاج الإعلامى ووجدت نفسى لأول مرة
أتلقت يمينا ويسارا .

* * *

(٢٧)

ركبت مى ابنتى التى تبلغ من العمر أربعة عشر ربيعا،
تاكسى من العجوزة إلى نادى الجزيرة وهى مسافة قصيرة لا
تستغرق دقيقتين . . وكانت هذه أول مرة فى حياتها تقوم بهذه
المغامرة، أى أن تذهب للنادى بمفردها . . وقد شجعته
على ذلك، فهى عضو فى فريق ألعاب القوى . . تعدو
المسافات القصيرة ١٠٠ متر و ٢٠٠ متر و ٤٠٠ × ١٠٠ تتابع،
وتضطر للذهاب إلى النادى يوميا للتدريب . .

جلسنا سويا فى اليوم السابق وبدأت أتحدث معها حول ضرورة
أن تقتحم الحياة وأن التصاقها بنا الدائم مرحلة يجب أن تتلوها
مرحلة أخرى تعتمد فيها على نفسها وأن ذلك سوف يعطيها ثقة
فى نفسها . . وأنها يجب ألا تخاف من ركوب تاكسى وحدها،
فالشعب المصرى هو أطيب شعوب العالم، وعندما يجد السائق
فتاة صغيرة سوف يعاملها كأبيها .

وبالفعل ركبت ابنتى التاكسى فى اليوم التالى وحدها، وكان
السائق رجلا فى الأربعين من العمر . . وبجهد صعوده على
كوبرى ٦ أكتوبر بادرها بالسؤال .

السائق: وإننى بتشوفى أفلام الجنس بالفرنساوى ولا
بالإنجليزى؟

فكرت مئى فى كيفية الرد ولكنها لم تجد أى إجابة فالتزمت
الصمت.

السائق: ماتخافيش مئى... قوللى لى بجد إننى بتشوفى أفلام
الجنس بأى لغة؟ يعنى بشحىبى تسمعى الآهات بالإنجليزى ولا
الفرنساوى؟

ارتعبت الفتاة المسكينة، لا أدرى على وجه اليقين ماذا دار
بخلدها فى تلك اللحظات الرهيبة... وكانت قد وصلت، فألقت
بالمال على كنية السيارة وفرت هاربة.

عندما حكى لى ابتنى ما حدث لها، تذكرت الفيلم الرائع
«أحلام» لأكييرا كوروساوا^(١)، عندما أغلقت الأم باب المنزل فى
وجه طفلها وأعطته خنجرا لمواجهة المجتمع، وقد صور
كوروساوا المنظر جميلا وخلابا بالزهور الشديدة البهاء ومخادعا
فى الوقت نفسه.

وقد رفع هذا السائق حجاب الوهم من أمام عيني، وأنا أقف
الآن فى المطبخ أسن النصل لكى أسلمه لابتنى غدا صباحا.

(١) أكييرا كوروساوا: مخرج يابانى، ٢٣ مارس ١٩٤٠ - ٦ سبتمبر ١٩٩٨، يعد من
ألمع مخرجى السينما فى القرن العشرين.

(٢٨)

شغل موضوع تاكسى العاصمة أذهان العديد من السائقين...
ودار العديد من الحوارات حول هذا المشروع الذى تم طرحه منذ
حكومة نظيف الأولى ثم تجدد الحوار حوله مع حكومة نظيف
الثانية... وممرت السنون والمشروع لم ير النور بعد، وقد
أطلقوا عليه اسم Cairo International Taxi أى تاكسى القاهرة
الدولى، ما معنى كلمة دولى هنا؟ ولماذا دولى؟ وهل سيارة
التاكسى هى الدولية أم القاهرة وقد تم تدويلها؟ لا يمكن أن تفهم
ولو فهمت سوف تتفجر بداخلك طاقات غضب أو شفقة على
حسب زاوية الرؤية، وسوف يكون لون التاكسى أصفر مثل
تاكسيات نيويورك، ومكتوب عليه Cab باللغة الإنجليزية لإعطائه
الصبغة الدولية، واستمر سائقو التاكسى الأبيض والأسود أولاد
البطة السوداء فى البحث عن كافة التفاصيل الخاصة بأعداد
سيارات الأجرة الصفراء أولاد البطة البيضاء وأسعار البنديرة،
وتساءلوا من سيركب هذه التاكسيات؟ وهل سوف يؤثر هذا
المشروع عليهم؟

أنا: سمعت إن خلاص حينز لوا تاكسى العاصمة أخيرا الشهر ده وحيقطعوا عليكم .

السائق: بيتكلموا عن الموضوع ده وكأنه مشروع قومى للبلد، خلصت توشكى ودخلوا على تاكسى العاصمة، الحاج نظيف ما بيعرفش يتكلم غير فى الحكاية دى، بقه موضوعه المفضل، واجتماعات مجلس الوزارة، وشاى وقهوة وقازوزة، تعبىن نفسهم قوى ومش عارف ليه؟ بيقلوا حينز لوا الأول ١٥٠ عربية وحينز ودوهم لغاية ما يبقوا ١٥٠٠ عربية، وفى القاهرة الكبرى... اللى هى العاصمة برضه، ثمانين ألف تاكسى... حيثشافوا فين دول؟ ده زى ما تحط نقطة سكر فى مية النيل... والله الحكاية دى فكرتنى بنكتة الرئيس اللبنانى اللى راح يزور الصين، فسأله الرئيس الصينى: ماجبتش معاك ليه الشعب اللبنانى؟

ماكانوش حيظهوروا برضه هناك...

أنا فى الأول كنت قلقان وبعدين عدت الشهور والسنين والحكومة مش عارفة كالعادة تعمل حاجة، وبعدين أما عرفت الأعداد والأسعار عرفت إن الموضوع مجرد منظر... شكل حلو وبس... زى كل حاجة فى البلد... نظام اضحك عشان الصورة تطلع حلوة!!

وبعدين تاكسى العاصمة عامل بالظبط زى الليموزين اللى

عملته جيهان السادات، كان للأجانب وبس، واللى يظمن إن الحكومة مش بتفكر غير فى السياح والأغنياء وإحنا بنو كُتب الشعب الغنيان اللى الحكومة مالهاش دعوة بيه.

إنما اللى يهتلك من الضحك، إن أنا سمعت إن الموضوع عمال يتأجل عشان موضوع اللاسلكى عارف حضرتك... الموجة يعنى... المفروض إن العربيات كلها تبقى متصلة ببعض... الزبون يتكلم بالتليفون، يروحوا شايفيين باللاسلكى مين أقرب تاكسى فاضى للمعنوان ويروحوا متصلين بالسواق عشان يطلع على العنوان...

جم البوليس سابوا الحكومة تتكلم عنه وكأنه مشروع قومى وسابوا المشروع لغاية ما اتعمل ولغاية ما اشتروا العربيات وقالوا لهم ستوب... الموجة دى بتاعتنا لوحدنا...

زى بالظبط اللى يسببك تركز ويفضل يتفرج عليك وبعد ما تنزل من العربية، بقولك لا والله ما ينفعش هنا هاتها لى شوية قدام...

أهو ده اللى حصل، بعد ما خلصوا المشروع طلّعوا لهم وقالوا لهم ما ينفعش ده أمن قومى وأمن خالتى... باعتبار إن قومى ده يبقى جدى...

بينى وبينك أنا اتبسطت... تعيش الشرطة فى خدمة التاكسيات... خليههم يوقفوا لهم المشروع.

وعامة المشروع ده قدامه حاجة من اتنين وابقى افتكرنى ، يا إما
حيخسر ويقفل ، يا إما حيغلى أسعاره جدا وما أعرفش مين اللى
حير كبه غير الناس الدوليين ؟

(٢٩)

تشغل قضية التعليم والدروس الخصوصية قمة هرم اهتمامات
المواطن المصرى . . ولا يشارك تلك القضية القمة سوى قضية
الجرى وراء الرزق . . فكلا القضيتين تشكلان محور فكر
السواد الأعظم من الناس . . باعتبار المجتمع المصرى مجتمعاً
عائلياً بالأساس والأطفال يملئون العائلة المصرية بالضجيج
والحب والأمل والهم وبالتأكيد بمشكلة التعليم والدروس
الخصوصية .

ولاكتمال دورة الأفلاك ، فكل مصرى يجرى وراء الرزق
لكى يعطيه للمدرسين الخصوصيين . . والدروس الخصوصية
مثلها مثل الماركات . . تجد منها تنوعات بكافة الأسعار لكى
تناسب كل الطبقات والشرائح الاجتماعية ، فدرس الحساب
يمكن أن يكون بعشرة جنيهاً للمحصة وكذلك يمكن أن يكون
بمائة جنيه . . ولو كان إيرادك لا يسمح بدفع عشرة جنيهاً
فهناك فصول للتقوية والمعجم والمراكز . . إلخ من بيزنيس لا
أول له ولا آخر .

ويكفي أن تضغط مع أي سائق تاكسي له أولاد في سن التعليم على زر التعليم كي ينطلق كالصاروخ ولا يمكن إيقافه ولا بمهندسين ناسا شخصياً .

وكنت في ذلك اليوم في سبتمبر عام ٢٠٠٥ قد دفعت مصاريف أولادي الثلاثة وبمجرد جلوسى في سيارة الأجرة، والأموال التي دفعتها للمدرسة لم تبرد بعد، ضغطت على زر التشغيل وإذا بالسائق ينطلق .

السائق : أنا ولادى حيجبولى نقطة . . الواد الحيلة في ستة ابتدائى ، والله ما بيعرفش يكتب اسمه وفي آخر السنة يروحوا يغششوه وينجح على السنة اللي بعدها والا المدرسة تروح في داهية وتدخل مع الوزارة في سين وجيم . . وعندى بتتين في الثانوية ، واحدة في تالته ثانوى والثانية في تانية ثانوى . .

الحمد لله البنات شطّار . . بس مضيعينى دروس خصوصية، والله بدفع لكل بنت في الشهر الواحد مائة وعشرين جنيه . . تخيل إنت ، بتأخذ كل واحدة دروس في ثلاث مواد، كل مادة بأربعين جنيه في الشهر . . خراب بيوت مستعجل ، أُمّال الواد «ألبير» لما يكبر وهو مخه مضلّم كده حادف له كام دروس خصوصية . .

النظام عندنا إيه ؟ إن إيفلين ، البت الكبيرة ، بتديله دروس

خصوصية وتأخذ منى فلوس علشان تدفعها لدروسها الخصوصية . . ما أنا برضه لازم أعلمها إنها تكسب فلوسها بجهنها . .

(ضاحكاً) بس واضح إنها خايفة مش عارفة تعلمه حاجة و بتأخذ منى فلوس وخلاص .

أنا : طب وفيين المدرسة ؟

السائق : مدرسة إيه ؟ بقولك ما بيعرفش يكتب اسمه . . تقول لى مدرسة . . أدى يا سيدى التعليم المجانى . . برفع الحياء اتشال خلاص . . ذلوقتى ماتدفعش حاجة . . ماتأخذش حاجة . . والمصيبة إن إحنا كمان بتدفع . . فى الابتدائى بتدفع ٤٠ جنيه عشان نستلم الكتب وفى الإعدادى وفى الثانوى بتدفع ٨٠ جنيه وميت جنيه . . ومن غير ما ندفع مافيش كتب . . يعنى النظام يا اندفع يا مفيش الكتب .

التعليم لكل الناس ده يا أستاذ كان حلم جميل زى أحلام كثير راحت ومافضلش منها غير الشكل والمنظر . . على الورق التعليم كالماء والهواء . . إجبارى لكل الناس . . ولكن الحقيقة الأغنياء بيتعلموا وبيتغللوا وبيكسبوا ، والفقراء ما بيتعلموش حاجة ومايتغللوش حاجة ومايكسبوش حاجة . ومتلقحين كلهم أترهبهم ملك مش لاقين لا شغلة ولا مشغلة . ماعدا طبعا العباقرة وأكيد الواد «ألبير» مش من ضمنهم . .

بس أهو أنا باحاول . وبدفع الدروس الخصوصية وأنا زى
الكلب، حاعمل إيه تانى . . وياقول احتمال ربنا ينفخ فى
صورته ويبقى زويل^(١) تانى . . مين يعرف؟؟

(٣٠)

أعتبر نفسى من أشد المعادين لحقوق الملكية الفكرية فى إطار
الاتساع اليومى بل اللحظى للهوة التى تفصلنا نحن العالم
المختلف عن العالم المتقدم، ولإيمانى بحتمية فتح كل السبل
أمام الشعب الذى أنتمى إليه للثقافة وللدواء لمواجهة الشئ
الشرس الجهل والمرض الذى ينهش فى مجتمعى منذ قرون .
وطبعاً لن يتأتى ذلك بحماية حقوق الملكية الفكرية التى سوف
تجعل أسعار الدواء فى متناول الأغنياء فقط وسوف تجعل من
الثقافة رفاهية ربما لا يقدر عليها الأغنياء أنفسهم . . ونتيجة لكل
ما تقدم، كنت أجلس فى شركة كمبيوتر أضع على جهاز
الكمبيوتر الخاص بى برامج منسوخة أى مضروبة . . لأن أسعار
البرامج الأصلية تدخل فى إطار النكتة البايخة . . وبعد أن
انتهيت من ضرب عدد كبير من البرامج، ووضعتهم على
جهاز الكمبيوتر الخاص بى، نزلت من الشركة الواقعة فى
شارع قصر العينى لأبحث عن تاكسى . وأثناء وقوفى على
الرصيف اقترب منى ماسح أحذية .

ماسح الأحذية: تمسح يا بيه .

(١) د. أحمد زويل: ٢٦ فبراير ١٩٤٦، أول عالم عربى يحصل على جائزة نوبل
فى الكيمياء .

أنا : أنا مستنى تاكسى .

ماسح الأحذية : الساعة اثنين الظهر مش ح تلاقى على طول . . امسح الأول وبعد كده أنا ح أجيب لك تاكسى . .
وبعدين بص حضرتك . . جزمتك وسخة جدا .

أنا : امسح يا سيدى .

ماسح الأحذية : حضرتك رايح على فين ؟

أنا : رايح الزمالك .

ماسح الأحذية : ممكن سعادتك تاخذنى معاك ينوبك ثواب ؟

أنا : أخذك ، ما اخدكش ليه !

ماسح الأحذية : ربنا يخليك . . وعندك أولاد .

أنا : أيوه عندى ثلاثة .

ماسح الأحذية : الله ، بصرة ، أنا كمان عندى ثلاثة ، واحد فى تانية معهد أزهرى بس للأسف راح طنطا . . والتانية فى تانية ثانوى وآخر العنقود فى تالته إعدادى .

أنا : إنت سابقنى شوية . . بس شكلك صغير . . مايجبش كل السنين دى .

ماسح الأحذية : أنا عندى خمسة وأربعين سنة ، ما أنا إتهوزت عندى واحد وعشرين . . بس الحمد لله ، ربنا موفقتنى والعيال

ظالعة زى الفل ، كلهم متفوقين ويطلعوا ماشاء الله من الأوائل . . اللي مزعلنى الواد اللي مجموعته وداه طنطا ده . . بس كله سنة ويحول على القاهرة . .

أخرج لى صورة فوتوغرافية تجمعه بأبنائه الثلاثة . . يبدو أنها صورة حديثة . . الجميع مبتسم ابتسامة عريضة . . الأب يقف فى الوسط يحضن ابنه الكبير الذى يقف على يمينه ويحضن بيده الأخرى ابنته التى تقف على يساره ، وآخر العنقود يقف أمام الأب ويمد أخوه وأخته كل منهما يده ليضعوها على كتف أخيهما الصغير .

ماسح الأحذية : دى صورة أخذها لينا أخويا . . ده عايش فى السعودية يقوله يجى عشرين سنة . .
أنا : صورة جميلة ، ربنا يخللى .

ماسح الأحذية : الحمد لله ربنا راضى عنى قوى . . الأشياء معدن والعيال بيكبروا وبيزهروا . . حد فى الدنيا عايز أكثر من كده .

أنا : تاكسى أهو . . زمالك . . زمالك . . ح تيجى معيا .

ماسح الأحذية : جاى . . مش إحنا اتفقنا .

أنا : اتفقنا .

وركبنا التاكسى ، جلست أنا فى الأمام بجانب السائق ، وهو

ركب خلفي ووضع عدته على حجره، نظر السائق لمسح الأحذية
باشمئزاز، ثم وجه حديثه لى :

السائق : إنتم مع بعض .

أنا : أيوه مع بعض .

السائق : مع بعض إزاي . . لا كل واحد ح يدفع أجرة .

أنا : قلت لك مع بعض .

السائق : طب أنا حاخد سبعة جنيه .

أنا : طب ما تتكلم بأدب . .

السائق : أهو أنا كده، غلبس، حد شريكى .

وفجأة نزل لمسح الأحذية، نزلت وراءه ولكنه جرى عكس
اتجاه السير، ناديت عليه ولا مجيب . . اختفى وسط الزحام . .
نظرت إلى السائق نظرة غضب، وقلت له : إنت إيه؟ مش بنى
آدم؟

للغرابية لم يرد السائق وانطلق بالسيارة وقررت أنا السير حتى
الزمانك . . وعند وصولي إني هناك وجدت حداثي أوسخ بما
كان .

(٣١)

عندما تكون المسافة قصيرة جداً، لا أسعى لفتح موضوع مع
السائق، فقد ركبت التاكسى من شارع جزيرة العرب فى
المهندسين إلى ميدان لبنان . . رحلة لا تستغرق ثلاث دقائق .

كان السائق يسمع أغنية «لسه فاكر» لأم كلثوم . . وكان هذا
سبب آخر لالتزامى الصمت كى أستمع بالأغنية فقلما يضع
السائقون أغاني جميلة .

ولكن هذه المرة لم يمهلنى السائق وسألنى سؤالاً فى منتهى
الغرابية « تعرف إيه يا باشا أبشع حاجة فى الدنيا؟ » .

تصورت فى البداية أنه يمزح . . ولكنى رأيت وجهه جاداً .

فكرت قليلاً وأجبت « إن مصر كانت تتغلب إمبراح قدام كوت
ديفوار، فكان ذلك فى اليوم التالى لنهائيات كأس الأمم الأفريقية
والتى انتهت لصالح مصر على أرضها بضربات الجزاء أمام كوت
ديفوار .

فأجاب : لا . . فيه حاجة أبشع بكثير . .

أنا : زى إيه ؟

السائق : إن حد يحب لأمواخذة شرموطة .

أنا : وانت تعرف حد حب شرموطة وحكى لك ؟

السائق : أنا ياباشا . . أنا بحب واحدة . . لأمواخذة شرموطة .

كنا قد وصلنا أمام مقهى «باسكوا» ، وكانت أختى وابن خالى فى انتظارى هناك ، ولكن السائق كان قد أشعل فتيل الفضول المتوقد داخلنا . . هذا بالإضافة إلى أنه كانت لديه رغبة أكيدة فى الكلام .

توقف التاكسى وأكملت الحوار .

أنا : وإزاي ده حصل ؟

السائق : ركبت معايا واحدة محجبة وشكلها محترم جدا حوالى الساعة ١١ بالليل وطلبت منى أوصلها المهندسين . . الكلام ده كان آخر أغسطس يعنى من ٦-٥ شهور ، وصلتها شارع دمشق ، قائلتى تجيلى بعد ساعتين هنا علشان أنا رايحة زيارة لمريض ومش ح أعرف أروح متأخر كده ، ينوبك ثواب عند ربنا . . أنا راجل صعيدي أصلا وطبعاً قلت دى حرمة والليل غدار ، واتفقت معها إنى أرجع لها بعد ساعتين . . وبالفعل رحت لها ونزلت لى وطلبت منى أودعها منشية ناصر . . طلبت منها خمسة وعشرين جنيه . . قالت لى ح أديك الطاق طاقين . . ح أديك خمسين جنيه أصل الزبون كان كريم حيتين .

هى قالت الزبون من هنا وحسيت إن الكلمة دخلت زى الصاروخ فى صرصور ودنى ، خرمت نافوخى . . وشى انقلب .

أصل قالت لى ، أصل اسمها أمل ، يعنى كنت عايزنى أقولك لك إيه ؟ يعنى بدمتك فيه واحدة تروح لمريض فى نصاص الليالى مش المفروض إنك تبقى مفتوح .

وكلمة من هنا وكلمة هناك . . البيت صعبت على واتفقت معاها إنى أوصلها بكرة لنفس العنوان الساعة ١٠ بالليل . ماطولش عليك قعدت معاها أسبوع وقالت لى بعد كده يا عم متشكرين ولو محتاج حاجة أدى موبايلى أهه يبقى كلمنى .

مش عارف إيه اللي حصل لى . . مايقتش عارف أفكر غير فى بنت الوسخة دى . . وأقول لنفسى : شررموطة . . شررموطة !! واللى زاد وغطى إنى طول ما أنا ماشى فى الشارع باشرفها ، آجى مفرمل الأقى واحدة تانية بس نفس طولها ، أو واحدة تانية محجبة أو حتى مش شبهها خالص ، قلت أنا اتجنت والبت أكيد عاملة لى عمل . رحت مكلمها على الموبايل ولما شفتها لقيت نفسى بقول لها يا حبيبك . . مش عارف إزاي . . ضحكت قوى وقالت لى :

إنت عايز تنط ولا عايز تعط ؟

قلت لها عايز أتجوز . .

ردت وقالت لى تبقى أكيد حمار .

ومش عارف أعمل إيه يا باشا؟؟ تصدق واحد صعيدى زى
حالاتى ومن سوهاج يحب، ومن قلبه، واحدة شررموطة . .
يفكر فيها طول النهار والليل، بشوف صورته فى كل السنين،
بحبها .

رينا ما يوريك، أهى دى عن حق أكبر لعنة فى الدنيا .

نزلت من التاكسى وقلت له من الشباك . . كده إنت لا نظيت،
ولا عطيت، ولا إنجوزت . كان الله فى عونك !

(٢٢)

كدنا نصطدم بأكثر من سيارة ولم تمر سوى دقائق قليلة على
تحررنا، وفى كل مرة تنقذنا العناية الإلهية من حادثة محققة . .
كان السائق شاباً أهوج، حليق الرأس . . ربيعاً حتى يكاد أن
يتلاشى، كل ملابسه مهرولة عليه، فعلى الأرجح أن مقاسه
لا يوجد إلا فى محلات الأطفال . . باهت الوجه من سوء تغذية
تاريخية . . قصير القامة، ذكرتنى حالته الجسمانية والصحية
بالمعلومة الإحصائية المرعبة أن عشرة بالمائة من أطفال مصر
بالصعيد لديهم تخلف عقلى من سوء التغذية . وكذلك بالتقرير
الذى سمعته بالإذاعة المصرية أن هناك مشكلة تواجه طلبات تلقى
طيارين عسكريين جدد، حيث إن كل المتقدمين مع وجود
استثناءات قليلة جداً يتم رفضهم لأسباب خاصة بلياقاتهم
الجسمانية أو النفسية، وقد صرح اللواء المسئول أن ذلك يعبر ولا
شك عن حالة سوء التغذية عامة فى المجتمع المصرى . .

هذا السائق المسكين يعد نموذجاً جيداً لهذه الكارثة . . لا مجال
الآن للتفكير فى المشكلات العامة حيث يبدو إننى قد أموت فى

حادثة خلال دقائق، فأنا لا أعرف كيف لم نصطدم بسيارة حتى الآن... والحمد لله دخلنا في شارع مزدحم وتوقفنا عن السير تماما.

أنا: أنت إتعلمت سواقة فين؟

السائق: في الجيش... ما أنا لسه متخرج.

أنا: اتخرجت منين؟

السائق: من الجيش... كنت شغال سواق... اتعلمت السواقة واشتغلت سواق... كنا في طريق السويس... وكنت باسوق عربيات الجيش الكبيرة.

أنا: في الصحراء.

السواق: أيوه في الصحراء.

أنا: أنا رأيي إنك تكفى بالسواقة في الصحراء... لم يفهم النكتة وأكمل حديثه.

السواق: الجيش ده كان أحلى أيام... قضيت فيه ثلاث سنين... ما أظنش إني ح أشوف أجمل منهم... صحبة ومحبة... ده أنا بقى عندي صحاب ياما... صحاب صحاب، رجالة يعني لو تحتاج لهم تلاقيهم... بصراحة كل اللي أنا أعرفه دلوقتي اتعلمته من الجيش... مش بس السواقة... لا... كل حاجة، الجيش ده مدرسة عن حق... مدرسة تطلع رجالة. أنا بعد

ما تجنيدى خالص... كنت عايز أتعطع وبعدت جت حكاية التاكسي ده... خدتنى شوية.

أنا: كنت عايز تتطوع!!

السائق: أيوه... دى أحلى عيشة... مرتب ثابت... برضه إن فالك الميرى اتمرغ في ترابه.

أنا: ولو تطوعت واطرغت في الميرى تاخد كام؟

السائق: لا مرتب كويس جدا... يعني في حدود تلتسمية وخمسين جنيه في الشهر... حد لاقيهم دول... بس تقول إيه... التاكسي خدتنى شوية.

أنا: وبتكسب كويس من التاكسي؟

السائق: والله ما أنا عارف، اللي بكسبه بصرفه فورا.

أنا: يعني تقريبا قد إيه؟

السائق: والله عمرى ما حسبتها، كسبت جنيه بأصرف جنيه، كسبت عشرة بأصرف عشرة... ممشيها بالتكال وعلى فكرة مفيش سواق في مصر يقدر يقولك بيكسب كام، كله بالتكال.

وبدا الزحام يقل تدريجيا، وخفت أنا من الاستمرار معه وقلت لنفسى «من خاف سلم»، ونزلت من السيارة أبحث عن تاكسي آخر.

أنا مش فاهم هما عايزين مننا إيه؟ شغل ومفيش . . قلنا نشتغل
 أى حاجة . . واقفين لنا بالمرصاد فى أى شغلانة . . عمالين ينهبوا
 ويسرقوا ويرتشوا وآخرتها إيه مش عارف؟ أنا زى ما بصرف كل
 يوم فلوس على البنزين ، لازم أحط فلوس رشاوى للمرور يوماتى
 على الله .

(٣٣)

طب ما فى الآخر ح نهج زى ما كله بيهج . . واضح إن دى
 الخطة الحقيقية للحكومة . . إنها تخلينا كلنا نهج على برة . . بس
 أنا مش فاهم لو هجينا كلنا الحكومة ح تسرق مين؟! مش ح يفضل
 حد تسرقه .

والله ما أنا فاهم وزير الداخلية قبل ما ينام بالليل يفكر هو
 بيعمل فينا إيه؟ يفكر إن إحنا ولاد ناس متعلمين وأهلنا تعبوا فى
 تعليمنا قد إيه؟ يفكر قد إيه بنتهان من رجالتة فى الشارع؟
 يفكر وهو راسه على المخدة إن إحنا خلاص مش قادرين وح
 نتفجر خلاص . . والله ما قادرين نستحمل . . إحنا بنموت نفسنا
 عشان نعيش . . والداخلية بتعاملنا كأننا مجرمين . . وطبعا
 كدابين . . كلنا كدابين بالنسبة لأى ظابط . . واضح إنهم
 بيعلموهم كده فى كلية الشرطة ، إن الإنسان يولد كذابا ويعيش
 كذابا ويتنفس كذابا ويموت كذابا . . لما إمبراح بقول له ماكتتش
 بتكلم فى الموبایل . . قال لى ما إنت ماسكه فى إيدك أهه وكنت
 بتكلم . ما فكرش لحظة واحدة إن أنا ممكن أكون صادق . .
 صادق!! صادق إزاي إذا كنا كلنا كدابين وكلنا ولاد كلب ولازم

هذا السائق غاضب . . بل غاضب جدا ، ويمكننى القول إنه
 فى حالة ثورة . . فهو يصرخ فى وجهى وكأننى السبب فى مشاكله
 كلها .

كان شابا فى الثلاثين من العمر . . يبدو أنه خريج جامعى . .
 حاولت تهدئته دون جدوى وفى النهاية حكى لى سبب ثورته :

إمبراح سحبوا منى الرخص . . قال إيه كنت بتكلم فى
 الموبایل . والله والله ما كتتش بتكلم فى الموبایل ، كنت ماسكه
 بس ، حاولت أجيب الرخص عن طريق واسطة ، كان الكمين
 مشى ، النهاردة الصبح دببت مشوار مرور نكلة فى آخر الدنيا ما
 إحنا سواقين ولاد كلب لازم يرموا المرور اللى تبعنا فى آخر بلاد
 المسلمين ، واد مخلصاتى قاللى الرخصة ما جاتش لسه فى المرور .
 ضيعوا على ساعتين شغل إمبراح وساعتين النهاردة ، وأسه . .
 وشوف ح أدفع كام وأتدلل قد إيه عشان أجيبها . . طلوع دين . .
 وهناك فى المرور أمم ، ومفيش خطوة من غير كع ورشاوى ، حاجة
 وسخة .

نَضْرِبُ بِالْجَزْمَةِ الْقَدِيمَةَ ، والله أنا حاسس إننا مش بنى آدمين . .
إننا جَزم قديمة .

إيه رأيك يا أستاذ أنا بنى آدم ولا جزمة؟

نظر إلى منتظرا الإجابة ، فلم أتمالك نفسى من الضحك ،
فقد كانت ثورته عنيفة لدرجة تدعو إلى الضحك وربما للبكاء
أيضا ، ثم اعتذرت له قائلا : طبعاً بنى آدم .

قال لى فى النهاية : «هم يضحك وهم يبكي» .

اعتذر لى أنه فرغ فى شحنة غضبه معللاً ذلك بأننى أول زبون
أركب معه بعد عودته من المرور .

وبعد أن هدأ قليلاً ، قال لى :

السائق : إنت عارف إيه السبب فى المصيبة دى كلها؟

سألته عن السبب ، فقال لى ضاحكاً :

الحكاية إن أنا وأنا ماشى جالى إس إم إس SMS بصيت ، لقيت
نكتة فضحكت قوى وأنا داخل على اللجنة . . افتكرونى بتكلم
فى الموبايل ! . . نكتة وديتنى فى داهية!

أنا : وكانت إيه النكتة دى؟

السائق : نشكر كل من قال نعم فى الاستفتاء ونخص بالشكر
أم نعيمة لأنها قالت نعمين .

وانفجرنا معاً فى الضحك .

(٢٤)

كنت فى طريقى إلى مصر الجديدة ، وكان عندى موعد هام فى
الشئون المعنوية للقوات المسلحة للتصريح لى بالتصوير أمام
المنصة ، وكان الموعد محدداً منذ فترة طويلة . ولم أكن أريد أن
أتاخر فذهبت مبكراً بنصف ساعة تقريباً على الأقل . .

استقلت تاكسى من الدقى . . وأخذنا طريق كوبرى ٦
أكتوبر ، وكان الطريق مزدحماً كالعادة ، ولكننى كنت أضع فى
بطنى بطيخة صيفى . . وفى المدة التى كنت قد حددتها
بالتقريب وصلنا إلى طريق صلاح سالم وعند اقترابنا من أرض
المعارض توقف الطريق تماماً ، لم أهتم كثيراً . . ولكن الانتظار
طال ومرت الدقائق بطيئة وبدأنا نسأل السيارات المجاورة عن
السبب . . فقليل لنا إن الرئيس مبارك نازل مشوار . . طيب ربنا
يوصله بالسلامة ، وكلها دقائق أخرى وسوف يفتح الطريق . .

ظللنا جالسين فى السيارة التى تحولت بفعل قوة سحرية إلى
مجرد حجر قابع فى وسط الطريق لا يتحرك قيد أنملة ولو بقوة
هرقل الجبار ، حتى اقترب انتظارنا من الساعة . قررت أن أدفع
للسائق الأجرة وأن أنزل وأمشى فلا شك أن المشى أفضل من

الجلوس . . . وبمجرد أن شرعت في النزول حتى اقترب منى ضابط
ومنعني من النزول . . .

أنا : إزاي يعنى ؟

الضابط : ممنوع يا أستاذ . . لازم تفضل في العربية .

أنا : يعنى إيه . . ده شارع . . وأنا عايز أمشى في الشارع على
رجلي .

الضابط : ممنوع يا أستاذ . . ادخل العربية .

دخلت التاكسي صاعرا ، وضحك السائق عاليا .

السائق : يعنى عايز تسييني لوحدي في الهم ده . شوف ربنا .

أنا : أنا كنت بحاول ألحق ميعادي .

السائق : لا ميعاد إيه . . دي لطة كبيرة . . أنا مرة وقفت
هنا أربع ساعات ما بتحركش .

أنا : يانهار أسود أربع ساعات !!

السائق : يوميا خرجت من هنا ، رجعت العربية لصاحبها .
ودفعت له كل اللي معايا وقلت معلش ح أديك الباقي بكرة
وروح والله غنا كلنا من غير عشاء ، كانت مراتي وعيالي
مستئيني زي كل يوم على العشاء ، رجعت وإيديا فاضية . . مراتي
عيطت ونيمت العيال . . وفضلت أنا جنب الشباك أسمع قرآن
عشان أهدي نفسي .

أنا : طب والنهاردة حتعمل إيه ؟

السائق : البركة فيك . . تعرض لي الكام ساعة اللي حتلطفهم
هنا .

أنا : القصة دي كلها عشان أعرضك أنا النهاردة ؟

السائق : لا والختمة الشريفة . . اللي باحكيهونك صدق . .
ولو ياعم مش عايز تدفع غير اللي دفعته أنا راضي . . بس خليك
معايا تتسلى .

وجلسنا قرابة الثلاث ساعات نتسلى ، حكى لي أنه كان يعشق
القاهرة ثم بدأ يحبها ، ثم بدأ يشعر تجاهها بمشاعر متضاربة ، ثم
كرهها والآن هو يمقتها .

وحكى لي في النهاية حوالى عشرين نكتة ورديت عليه
بمثلهم ، وللأسف لا أستطيع أن أحكيها لكم فكل نكتة منهم
كفيلة بأن تدخلني السجن بتهمة القذف ، رغم عدم فهمي لماذا
أدخل السجن بسبب نكت يعرفها معظم الشعب المصري
ويتداولها يوميا ويضحك عليها ؟

ولأنى بالطبع لا أريد أن أسجن فأكتفى بالقول إننا ضحكنا
كثيرا وإن كنت لم أذهب إلى موعدى .

في ذلك اليوم أخرجت البطيخة الصيفي من بطني نهائيا وإلى
الأبد .



فى كل حنة . . أنا إمبارح سمعت إن واحد كان ماشى فى أمريكا
وضرب نار على واحد تانى فى الشارع ، زى ما إنت شايف حادثة
مهمة قوى . بكرة ح يقولوا لنا إن فيه عمليات إرهابية فى بلاد
الواق الواق وفى بلاد تركب الأفيال . .

وبعدين تطلع علينا مديعة أطفال وتكلمنا فى الإذاعة بالصوت
بتاع اشربوا اللبن قبل ما تناموا وتقعّد تدنا فى نصائح بصوت أم
حنون باعتبار إن الشعب لسه ماشالش الكفولة .

أنا نفسى أعرف هو فيه حد بلغ وزير الإعلام ، ده واللى قبله
واللى قبله ، إننا متخلفين عقليا ولا احتمال بلغوه إننا لسه
بنرضع .

وبعدين ما يزهقوش . . كل مرة نفس الحكاية بتكرر . . لغاية
ما الواحد ما بقاش عايز يسمع إذاعة ولا يقرأ جرنال .

ويبنى وبينك زهقنا كمان من أخبار الرئيس ، كل نشرة ،
الرئيس قابل والرئيس اتصل بفلان ، وفلان كلمه على الموبايل ، أنا
مالى هو كلم مين ولا راح افتتح إيه ، أما الأخبار اللى تهمننا مفيش
أى سيرة عليها ، حاجة تقرف ، كل واحد عايز يتمحلس شوية
يتمحلس على قفايا أنا ، أنا رأيى يعملوا إذاعات فيها نشرات بجد
ونشرات محلسة ويسموها كده ، عشان الرئيس يسمع نشرات
المحلسة ويبقى يرقىهم وإحنا نسمع بقية نشرات .

ونفسى قوى أبلغ وزير الإعلام إننا أذكى منه ميت مرة

(٢٥)

هنا القاهرة . . نشرة الأخبار . . ثم اتحفنا المذيع أثناء
النشرة ، بعد طبعا تفصيل ما فعله الرئيس مبارك أثناء اليوم ،
بعدد لا يحصى من الحوادث والتفجيرات فى كل أنحاء العالم فى
إسرائيل وفى العراق وفى الهند وفى باكستان وفى الفلبين .

السائق : هما ليه مصممين إن إحنا متخلفين عقليا وأغبياء
وبريالة ولسه مطلعناش كلنا من الحضارة .

أنا من ساعة ما وعيت وكل ما تحصل مصيبة يجيبولنا نفس
المصيبة فى الدنيا كلها . .

تحصل حادثة قطر عندنا ، فجأة نقعد كام يوم نسمع عن كل
حوادث القطر اللى حصلت فى العالم .

ساعة الطيارة ما وقعت ولا إتضربت ، جابولنا حوادث
الطيارات اللى فى الدنيا وفى الآخرة بما فيها حوادث طيارات
الرش .

المرّة دى بعد الحادثة الإرهابية بتاعة التحرير . . هاريننا حوادث

وفاهمين الدنيا أكثر منه ميتين مرة . . بس ح أشوفه فين وزير
الإعلام ده عشان أقول له . .

إيه رأيك أبعت له تلغراف؟

ولا احتمال يقبضوا على لو بعته تلغراف؟

يا عم أنا مالي هي كانت بلدنا!!

دى بلادهم همه، يعملوا فيها اللي همه عاوزينه، وإحنا خطينا
فى التاكسى!

(٣٦)

اليوم تم نشر صور من تقدموا بأوراقهم لخوض الانتخابات
الرئاسية فى الصحف القومية مع تعريف قصير بكل منهم.

السائق: والله أنا عمري ما ضحكت قد النهاردة . . أما
شفت الجرنال وشفت صور اللي مرشحين أنفسهم، ضحكت
من قلبى، شكلهم زى «على حكشة» و«سوسو الأعرج»، حاجة
حقيقى تهلك من الضحك، جاييين ناس عمر ما حد سمع عنهم
حاجة.

ده حتى تلاقى أمهم نفسها ما سمعش عنهم حاجة . . ولا
الواد الأراجوز اللي عاملين ينفخوا فيه لغاية ما بقه قد البالونة
عشان يقولوا أهه برضه فيه الأستاذ بالونة دخل الانتخابات^(١).

إنت عارف حضرتك الناس دى دخلت اللعبة دى ليه؟

أنا: ليه؟

(١) ذكر لى السائق اسمًا بعينه، ولكن قال لى صديق محام إننى يجب أن أحذفه
خوفًا من رفع دعوى قضائية ضدى.

السائق : يقولوا والله هو أعلم إن مفيش حد خالص كان عايز يدخل . . لعبة مش بتاعة حد غير الحكومة . . يدخلوها ليه؟ الحكومة عايزة تبان قدام الأمريكان إنها ديمقراطية عشان الدعم ما يقفش والاقتصاد ما ينهارش ، فبتعمل المسرحية دي . . حلو قوى . . لكن حييجبوا منيين اللي يمثلوا في المسرحية ، وهو أصلا مفيش ممثلين عندنا من النوع ده في المسرحيات الهزلية ، جه دور المخرج الكبير . . ما هو الراجل كان بيعمل مسلسلات كثير وفاهم . . قالك إن الحكومة حتدي فلوس للدعاية الانتخابية لكل مرشح ، ما هو لازم الممثل ياخذ أجر ، اشمعني يحيى الفخراني يعني .

فيه كذا زبون قالوا لي أرقام بس كل واحد . قال لي حاجة . . فيه واحد قال لي الحكومة ح تدفع لكل مرشح مليون وفيه واحد قال لي ثلاثة أربع مليون . طبعاً الفلوس دي ح يدفعوا رباعها للدعاية . . ويحطوا الباقي في جيوبهم ويطلعوا من المولد بشوية حمص .

النكتة الأصلية واحد قالها لي النهاردة وقعدنا نضحك . . إن واحد من اللي مرشح نفسه ضد مبارك عشان ياخذ اللي فيه القسمة قال إن هو نفسه ح يرشح مبارك . . والله أنا ما مصدق . . بس الراجل حلف لي إنه قال كده فعلاً^(١) . . أصل مسرحيات

(١) نفس الملاحظة السابقة واضطرت لحذف الاسم .

عادل إمام ياخت وبيعملها للعرب وبس ، والشعب بطل يتفرج . وهندي أفلامه باظت . . قالوا هممه نعمل مسرحية الصيف . . نضحك بيها الناس بذل ما هممه مكلضمين . .

هو حضرتك شفت الصور النهاردة في الجرنال . . أنا : شفتهم .

السائق : وماضحكتش .

أنا : والله ما أعرفش منهم ولا واحد . . ودي طبعاً حاجة نضحك .

السائق : أنا بصراحة ما حبش مبارك وقلت أي حد ح ينزل ضده في الانتخابات ح أبقى معاه ، بس بعد ما شفت اللي نازلين ضده قلت لا ، مبارك برضه أحسن واحد فيهم . . يعني مش موضوع أحسن واحد ، هو الوحيد اللي ممكن حد ينتخبه . .

أنا : يعني حتروح تنتخبه؟

السائق : لا . . أنا ما بنتخبش حد . . قصدي على اللي بيروحو .

أحداث النصب على سائقى التاكسى كثيرة أحكى منها قصتين، عرفت القصة الأولى عندما ركبت التاكسى من الكورنيش أمام التليفزيون متوجها إلى المتيرة. . . وكان أقصر الطرق هو أن نخترق طريق جاردن سيتى، ووجدت السائق يحاول إيجاد طريق آخر وفى النهاية وافق على مضمض.

أنا: ليه. . . أنت ضد جاردن سيتى فى حاجة؟ بتشجع الزمالك ولا إيه؟

السائق: لا والله أنا ما بشجعش حد ولا فارق معايا أى حد. . . الحكاية إنى مابجش أعدى فى الشارع ده.

أنا: ليه؟

السائق: أصلى اتنصب على فيه الشهر اللى فات.

أنا: إزاي؟

السائق: دخل التاكسى راجل وجيه جدا، شكله ابن ناس جدا، لايس حلو جدا. ركب من الزمالك وقال لى المعادى يا

أسطى. . . قلت له اتفضل وإحنا فى الطريق. . . قال لى ماعلش ح ندخل جاردن سيتى أجيب دوا لأختى فى ثانية ونكمل على المعادى. . . قلت له مفيش مشكلة. . . دخلنا جاردن سيتى ووقفنا قدام صيدلية. . . نزل ورجع بعد دقيقة. . . وقال لى ح نضطر نرجع الزمالك أو نروح المعادى ونرجع بسرعة علشان اكتشفت إن محفظتى مش معايا. . . قلت له. . . مش مشكلة، مش بيت سعادتك فى المعادى برضه؟ قال لى: أبوه. . . قلت له: أدفع لسعادتك ثمن الدوا دلوقتى وأما أوصل سعادتك المعادى إبقى ادفع لى. طلع ثمن الدوا ٤٢ جنيه. إديته خمسين جنيه. . . اشترى الدوا وخرج بكيس من الأجزخانة ومفيش خطوتين وقفنى قدام عمارة وقال لى ثانية وراجع لك. . . فضلت مستنى بجى نص ساعة. . . مفيش. . . دخلت أدور عليه. . . مفيش. . . رحت رايح الصيدلية زعفت لهم شكله! الدكتور قال لى أبوه اشترى ريفو بنصف جنيه وصمم ياخذ كيس علشان عايز يفتكر اسم الصيدلية!

ومن يومها كاره أعدى فى الشارع ده، بيفكرنى إنى حمار.

أما القصة الثانية فكلاسيكية جدا وربما تكون قد حدثت بحذافيرها مع عدد كبير من السائقين الغلابة، ولكن السائق الذى حكى لى تلك القصة مخضرم عتيد فى السواقى وليس فى الإجرام، يمارس المهنة منذ عام ١٩٦٦، وملخصها أن أحد الزبائن طلب من السائق أن يستأجر التاكسى لنصف نهار مقابل مبلغ مائة جنيه، وافق السائق بدل «ما يلف طول النهار فى

الشوارع» ، وبالفعل دار معه بين ضواحي القاهرة ومناحيها ، وفي النهاية وقف أمام عمارة وطلب من السائق انتظاره خمس دقائق ، وبالطبع اكتشف السائق فى النهاية أن للعمارة مدخلا آخر .

يومها بكى السائق لأول مرة منذ سنوات عديدة على عَـبَـطـه وجهده وغيبائه ، وضع بقية النهار للبحث عن قريب يقرضه ثمن إيجار التاكسى فى الوردية وكان خمسون جنيهًا : «صاحب التاكسى الذى أنا بأشتغل عليه . . إيه ذنبه إني أهبل ؟» .

قال لى السائق المخضرم : «الدنيا بقت سمك بياكل فى بعضه ، صغير وكبير كُلُّه بيهيش» .

حالة العوز والفقر جعلت تحول الإنسان إلى السمك منتشرة ، رائحة الزفارة أصبحت تزكم أنفنى فى كل مكان أسير فيه فى القاهرة ، وأصبحت أرى أخيرا أسماكاً تتوحش فى البزك والمستنقعات والمجارى الممتدة على جانبي الطرق تستعد للانقضاض على فى أية لحظة .

(٢٨)

كنت فى ميدان سفير بمصر الجديدة ، مر أمامى تاكسى وآخر وأوقفت الثالث . . وبمجرد جلوسى إلى جانب السائق بادرنى بالسؤال عن السبب وراء عدم مشاورتى للسيارات التى كانت أمامه مباشرة . . أجبت إننى لا أحب كثيرا السيارات الجديدة كالسوزوكى والهيونداى لأنها صغيرة بالنسبة لحجمى ، أفضل السيارات القديمة كسيارته الفيات ١٤٠٠ أو البيجو ٥٠٤ ومثيلاتها .

ترحم السائق على أيام زمان ، أيام كان التاكسى عزيز ، ولكنه الآن يلف عشرات المرات قبل أن يجد زبونا واحدا .

السائق : كل ده من ساعة ما طلعا قرار أن أى عربية قديمة ممكن تقلب تاكسى ، كل من هب ودب أياميها راح قالب عربيته تاكسى . . أصبحت مهنة من لا مهنة له ، والله مصيبة . .

أنا : والحكاية دى حصلت إمتى ؟

السائق : الكلام ده فى نص التسعينات . . فجأة فتحوها على البهلى . . والله أنا أعرف ناس كان عندها عربيات كُهنة وقلبوها

تاكسى . . وفى نفس الوقت بالضبط فى نص التسعينات برضه عملوا وزارة بيئة وقعدت تقول العربيات القديمة بتلوث الجو وبتطلع قطران يدخل فى الرئة ، ونزلوا ناس فى الشارع تقيس من الشكمان وطلعوا عيينا وما عرفوش يعملوا معانا حاجة فى الآخر .

يعنى دول ماشيين فى شارع ودول ماشيين فى شارع تانى خالص ، والأتنين فى نفس الحكومة . . طب إزاي ماتفهمش .
من يومها بقى فيه كمية تاكسيات فى الشارع بالهبل ، عارف فيه كام تاكسى فى القاهرة ؟
أنا : لا ما أعرفش .

السائق : فيه النهاردة أكثر من تمانين ألف تاكسى ، كثير جدا طبعا . . تقدر تقولى تشتغل إزاي ، والله ما أنا عارف ؟
أنا : بس فعلا القرار ده غريب إن أى عربية ممكن تقلب تاكسى !!

السائق : القصة معروفة . . ولا عربية ولا حاجة أما يطلعوا القرار ده إيه اللى ح يحصل ؟
أنا : إيه ؟

السائق : زى ما قلنا عربيات بالهبل ح تقلب تاكسى . . والحكاية دى فيها سبوبة للحكومة ولناس كثير ، يعنى فيها فلوس

بالعبط للمرور ، كل عربية عشان تقلب تاكسى لازم تدفع للمرور رخص وخلافه والسواقين الجداد على العربيات دى عملوا رخص مهنية اللى برضه فيها فلوس كثير ، وبعدين التاكسيات دى كلها لازم تشتري عدادات .

أنا : طب وبعدين ؟

السائق : واحد من الثقال قوى راح مدخل كمية كبيرة جدا من العدادات ، وبقي هو فجأة محتكر كل العدادات اللى فى البلد . . وكل التاكسيات الجديدة اشترت منه . . العداد نزل بالقسط معدى الألف جنيه . . شغل على كبير . . عجل فلوس بالعبط . . قرار على ورقة وحنة إمضاء صغيرة خلت واحد يكسب ملايين .

ومفيش وبعد كام سنة يقول لك التكلفة كثير ومش عارفين ليه !! ومنوع التراخيص ، والتكلفة قديمة وحالتها وحشة ولازم نطلع قرارات جديدة تمنع كل العربيات اللى بقالها أكثر من عشرين سنة وكلام تانى اللى بقالها أكثر من عشر سنين . . كلام فى الأحلام يعنى عايزين بجرة قلم يقعدوا عشرات الآلاف فى بيوتهم . . إذا كان معظم التاكسيات فى البلد بقالها أكثر من عشر سنين . وكانوا فين دول لما طلّعوا القرار بتاع قلب العربيات لتكلفة ما هم نفس الناس ، لسه ماتغيروش .

والحقيقة إننا من ساعتها مش لاقين زباين ، الناس ما عندهاش فلوس تركب تاكسى ، زباين التاكسى بيركبوا النهاردة

ميكروياص، وإحنا بقينا عايشين على العرب من الصيف
للصيف، ودول راحوا كمان بعد تاكسي العاصمة اللي هو نازل
علشانهم، الحكومة بصراحة بتعمل كل اللي في إيديها عشان
تحولنا إحنا كمان لشحاتين أو مجرمين، تحس إنهم بيذلوا مجهود
لخراب بيتنا، واخللى بالك إن السواقين في مصر مش قليلين،
إحنا حوالى ربع مليون، بس اللي مش عارفينه إنهم مش ح
يقدرُوا عشان ربنا موجود وهو موزع الأرزاق، هو الرازق ولا
رازق إلا هو.

عند هذه المرحلة من الحوار كان السائق قد وصل إلى مرحلة
عالية من الانفعال، فوضع شريط كاسيت وبدأ أنا نستمع لآيات
بينات من القرآن الكريم.

(٢٩)

كثيرا ما أركب مع سائقين لا يعرفون جيدا الطرق ولا يعرفون
أسماء الشوارع... لكن هذا السائق كان له الشرف أنه لا يعرف أى
شارع على الإطلاق سوى الشارع الذى يسكن فيه بالطبع...
أذهلنى جهله المطبق بالقاهرة... كأنه أعمى يسير لأول مرة فى
قصر منيف...

أنا: إيه يا بنى... إنت مش سواق ولا إيه؟

السائق: لا والله يا باشا مش سواق.

أنا: أمان بتشتغل إيه؟

السائق: مُهرب.

أنا: مُهرب!!

السائق: ودى فيها إيه... دى كانت وصية المرحومة أمى...
قالت لى يا بنى الطريق البطال هو اللي ممكن يأكلك عيش فى البلد
دى... وبعدين أنا مش بهرب حاجة غلط ومش بضر بلدى، بل
بالعكس أنا بانفعها، يعنى حاجة تخلص الواحد يفتخر بنفسه.

أنا : إنت ح تسرح بى ؟

السائق : والنعمة الشريفة أنا مُهْرَب ، واللى حصل إن أبويا مات فجيت أدفنه ، وده التاكسى بتاعه شغال عليه لغاية أما أشوف حا عمل إيه فى حياتى .

أنا : وبتهرب إيه إن شاء الله ؟ !

السائق : أنا لسه صبى صغير . . بشتغل بقالى كام سنة مع معلمة فى السلوم . . إحنا ويعون الله بنهرب دخان من مصر على ليبيا . . يعنى بنشتري من مصر بما يرضى الله ونبيع فى ليبيا بما يرضى الله برضه . . مش قلت لك بتفيد البلد . . تقدر تقول عنى إننى واد وطنى .

أنا : يعنى إيه دخان ؟ مخدرات يعنى ؟

السائق : مخدرات إيه ؟ يعنى بذمتك واحد شغال فى المخدرات كنت ح تلاقيه يشتغل على تاكسى وطافح الكوته ، ويعنى كنت ح أقول لك كده إننى مهْرَب ! ! شايفنى عبيط . . ولا شايفنى عبيط . . دخان . . يعنى سجاير . . علب سجاير مستوردة . .

أنا : إزاي يعنى . . بتعملوا إيه ؟

السائق : الحكاية بسيطة جدا ، فيه كام معلمة فى السلوم مشغلين تحت أيديهم شبات ، وإحنا صبيانهم . . شغلنا إن إحنا

نشتري البازابورتات ، وإحنا وشطارتنا بعشرة جنيه بتناشر بالكثير بخمستاشر . .

أنا : يعنى إيه تشتروا الباسبورتات ؟

السائق : ماهو كل واحد من حفه إنه يشتري ست خراطيش سجاير من السوق الحرة . . نتفق إحنا مع أى واحد طالع ليبيا ، نشتري بجوازه الست خراطيش والست خراطيش كانوا يقطعوا حوالى ١٧٥ جنيه ، على العشرة جنيه بتاعة صاحب الجواز يبقوا مية خمسة وثمانين ، كنا نشتري فى اليوم بتاع متين جواز وبعدين نهريهم على ليبيا . . أصل جمرىك «مساعدة» سهل ، يعنى اللى جاي بعربية يتفتش إنما لو لقوا حد معدى كده على رجله . . ممكن يعدى من غير مشاكل . . كنا نخط الخراطيش فى شنت قماش ونحطها على كتافنا وبعد ما نهريها ليبيا نبيعها هناك بحوالى اثنين وأربعين خمسة وأربعين دينار ، والدينار ساعتها كان بخمسة إلا ربع يعنى الجواز يعمل حوالى عشرين جنيه مكسب . . فى الكمية نطلع بأربعة آلاف جنيه فى اليوم . . هى دى شغلاننى حضرتك . . شغلانة شريفة .

أنا : لكن أنا مش فاهم السجاير دى مش موجودة فى ليبيا ؟

السائق : دى أنواع مستوردة معينة فى السوق الحرة وبيحبها الشعب الليبى ، نقوله لا ماتحبهاش ، يعنى كله مستفيد . .

أنا : وإنتو بتهربوا السجاير بس ؟

السائق: لا . . ساعات كنا بندخل طيارى شوية أجهزة فيديو وكاسيت من ليبيا على مصر . . بس جمرك السلوم مش زى جمرك مساعد . . مايرحموش ، لو شافه شنطة ماشية لوحدها يقبضوا عليها . . بس إحنا برضه كنا بنتصرف . أصل أنا بقالى سنين هناك . أبويا طول عمره تاكسى . . وكان عايز الله يرحمه يشغلنى على التاكسى . . أمى قالت لى أبوك ودانا ورا وعيشنا طول عمرنا طافحين الدم . . روح يا بنى اشتغل شغلانات الزمن ده . . الشغل اللى يجيب فلوس . . إنت مش شايف كل اللى حوالينا عاملين إزاي . . سافر . . اطلع على ليبيا احتمال زينا يفتحها عليك . . بس وأنا طالع على ليبيا . . لقيت لك الشغلانة بتاعة تهريب الدخان دى . . قلت فرجت ، وكنت بأبعت لأمى كل اللى بحوشه ، الحمد لله . . عيشتها كام يوم حلوتين قبل ما ربنا يفتكرها . . كانت أم عن حق ، الله يرحمها .

أنا: وناوى تَكُنْ فى مصر على التاكسى بتاع الوالد؟

السائق: لا حضرتك . . ما أنا شفت بعينى ولا حدش قال لى أبويا عاش إزاي طول عمره . . وشفته يا عيني مات ما عندوش ثمن الكفن . واللى جاي أوحش من اللى فات . . أنا ياذن الله حاشتغل أى شغلانة شريفة تجيب فلوس . . إنشا الله شيخ منس .

(٤٠)

المكان: معرض القاهرة الدولى للكتاب بمدينة نصر .

الزمان: ٢٦ يناير ٢٠٠٥ .

الساعة: الثانية والربع بعد الظهر .

درجة الحرارة: معتدلة .

الحدث: برنامج تليفزيونى عن المشاركة السياسية وحوارات مسجلة مع الجماهير (ليست بالقطع على الهواء فالهواء خطر على الأجواء الديمقراطية) .

المنهج: يعطى المذيع أثناء الحوارات دروساً فى الأخلاق الحميدة لحلاوة المشاركة السياسية للجمهور الغلبان ، وإذا لزم الأمر يستعمل المذيع الشخط والنظر لإلزام كل ذى حذده .

أثناء سيرى بجانب مكثبات الأزيكية ، اقترب منى شخص وعرفنى بنفسه ، أنا مدير إنتاج برنامج تليفزيونى وبصور هنا ، وطلب منى أن يجرى المذيع حواراً معى ، وأكد لى أن الست مراتى صوف تحترم منى أكثر عندما ترانى فى التليفزيون ، أما أبنائى فسوف

يحكون لأصدقائهم فى المدرسة بكل فخر عما جرى لأبيهم داخل
الشاشة الفضية أو حتى البرنزية .

ثبتوا الميكروفون فى قميصى ، ووضع المصور الكاميرا أمامى ،
ومن خلفه تجمعت مجموعة من الفتيات الصغيرات المنقبات
بجانب حائط سراى ألمانيا وهن يتضحكن من منظر فريق
التصوير ، سرح المذيع بعض الشعيرات المتبقية فوق رأسه ،
واستعد لبده التصوير ، ياللا ١ ، ٢ ، ٣ ، دابر ، هاجمنى المذيع
بسؤال عن البطاقة الانتخابية فحكيت له هذا الحوار مع سائق
تاكسى :

أنا : طلعت بطاقة انتخابية ؟

السائق : يا نهار أسود ، إنت عايزنى أطلع بطاقة انتخابية ؟ دول
كاتوا يراقبونى ، ولو ما اديتهومش صوتى ، يقبضوا على وأروح أنا
فى طوكر^(١) .

أنا : (ضاحكا) يراقبك إيه وبتاع إيه ، إنت بتهرج مش كده ؟

السائق : أنا بتكلم جد جدا ، مية فى المية لو طلعت بطاقة
حيراقبونى ، وأبقى متسجل عندهم ، وتبقى مصيبة ، إنت اللى
طيب ومش فاهم اللى بيحصل .

(١) تقع مدينة طوكر فى شرق السودان ، وكان يتم نقل المغضوب عليهم هناك ،
فظهرت جملة «راح فى طوكر» .

ثم حكيت للمذيع عن محاولتى لإقناع السائق بأن ما يقوله
محض جنون ، وأن هذه الريبة من الدولة المتأصلة فى وجداننا
يجب وأدها ، ولكن كلامى معه كان كلام فى الهواء شاشى ، لم
يصدق منه حرفا ، بل بدأ يرتاب فى ، وأظن أنه تأكد فى النهاية
أننى مخابرات .

أنهيت حوارى مع التليفزيونى اللامع بقولنى إن هذا السائق أكد
لى أن الحوار حول المشاركة السياسية فى مصر نكتة بايخة ، وبايخة
قوى .

كنت أتمنى أن يفتخر بى أبنائى أمام أصدقائهم ، أو أن تزيد
زوجتى من جرعة احترامها لى فور رؤيتى داخل المربع الذهبى ،
ولكن يبدو أننى كنت مستطيلا وليس مربعا كما كان المفروض .

السائق: ويعدين أنا لو جابولي كشك سجائر وتحتيه طارة
حشغله تاكسى . . أنا سواق ما يهمنيش . .

أنا: طب يا سيدى حتاخد كام لغاية المعادى

السائق: اللى تدفعه

أنا: لا نتفق، إنت لسه ما مشيتش خطوتين . . اللى أوله شرط
آخره نور.

السائق: يا سيدى مش حنختلف

أنا: طب وافرض اختلافنا . . حنقعد نتخانى هناك فى
الشارع . . حتاخد كام؟

السائق: أنا مش عايز أقطع الرزق . . ده رزق وجاى لى من
ربنا وإنت مجرد واسطة . . أقطعه إزاي يس .

أنا: يا سيدى أنا اللى حدف . لو مش حتقول عايز كام،
نزلى .

السائق: افرض إنى قلت لك حاخد قد كده وإنت كنت ناوى
تدفع لى أكثر؟ ده رزق يا أستاذ!

أنا: لما بتدخل أجزخانة وتسال على سعر دواء، الصيدلى
بيقول لك ستة جنيه وثمانين قرش ولا بيقولك اللى تدفعه؟ إنت
الوحيد اللى لازم تكون عارف المشوار ده حيتكلف كام.

السائق: يعنى إنت مش عارف؟

أنا: لا عارف.

(٤١)

اكتشفت، بمجرد ركوبى السيارة إنها أقرب لزريبة اليهائم منها
لسيارة تاكسى، رائحتها نتنة والوسخ يحيط بى من كل جانب، أما
التراب فحدث ولا حرج. وفوجئت بمجرد تحرك السيارة أن كل
جزء منها يعمل بشكل مستقل تماما عن الأجزاء الأخرى . . وأن
كل قطعة تطلق صريحا خاصا بها فى كونشرتو موسيقى بانغ
الإزعاج.

نظرت إلى السائق، وجدت حالة ليس أفضل كثيراً من السيارة
التي يركبها.

أنا: إيه اللى أنت راكبه ده؟

السائق: أعمل إيه . . صاحبها مش عايز يصلحها . . عنها ما
اتصلحت، حيفضل يشغلها كده لغاية ما تبرك خالص . .
كان السائق يتكلم مقلدا طريقة النمبى فى الكلام^(١).

(١) شخصية فى سلسلة أفلام كوميدية حققت نجاحاً جماهيرياً، وقام بدور هذه
الشخصية الممثل محمد سعد.

السائق : طب يساوى كام؟

أنا : ١٥ جنيه .

السائق : طب ما تجيب عشرين .

أنا : (صارخا) نزلنى .

السائق : لأ خلاص ١٥ حلوين . . رضا . . (ضحك السائق ملء شديقه) طب تصدق بالله أنا كنت ح أقولك عشرة . . وإنت قلت ١٥ . . يعنى لو سمعت كلامك كنت حاقطع رزقى . . أنا باقولك كده عشان تصدق إن الصبح صح . . وإن السواق مفروض ما يقولش على أى سعر . . يسيبها كده على ربنا .

أنا : ولو كنت قلت خمسة .

السائق : لأ مش معقول . . وهو لامؤاخذه مشوار المعادى بخمسة برضه؟

واستمرت السيارة فى الحركة كل جزء منها يسير فى اتجاه واستمرت الآلات تعزف أسوأ سيمفونية فى التاريخ الإنسانى .

أنا : وأنت شفت فيلم اللمبى؟

السائق : لا والله ماشفتوش . . بس بيقولوا عليه حلوى قوى . .

هنا فقط اكتشفت أنه لم يكن يقلد محمد سعد فى فيلم اللمبى

وأن محمد سعد هو الذى يقلده!

(٤٢)

السائق : إنت عارف أنا عندى حلم كبير . . حلم أنا عايش علشانہ . . ماهو الواحد من غير حلم ما يقدرش يعيش . . يلاقى نفسه عنده وخم على طول ، مش قادر يتحرك من على السرير ، يكتشب ، يبقى عايز يموت ، إنما بالحلم تلاقى الواحد يتحرك رهوان ، يبقى فريرة ، نار قيادة ما تطفيش . . أنا ح فضل كده ولعة بلط وألف وأحوش فلوس لمدة أربع سنين . .

إنت عارف حلمى إيه؟ إن أنا آخذ التاكسى بتاعى بعد أربع سنين وأسوق لغاية جنوب أفريقيا وأحضر كاس العالم هناك . ح أحط القرش على القرش لمدة أربع سنين وأطلع أكتشف القارة الأفريقية من شمالها مطرح ما أنا دلوقتى لغاية جنوبها . . وأعدى على كل البلاد الأفريقية وح أمشى ورا النيل لغاية ما أجيب أوله ، لغاية بحيرة فكتوريا يعنى وفى السكة ح أنام فى العربية وفى شنطة العربية ح أشون أكل يقضىنى شهرين . . معلبات فول على تونة وكمية عيش بنت كلب . . أصل أنا بحب العيش قوى .

ح أتفرج على الغابات وعلى الأسود والنمور والقروود

والفيلة والغزلان . . . وح أتعرف على ناس جديدة . . . ناس من السودان ومن كل بلد بعد كده . . . أنا لسه مش عارف ح أعدى على أنهى بلاد بالظبط . . . اشتريت أطلس من المكتبة وبصيت عليه بس لسه ما حددتش الطريق بتاعى . . .

ولما أوصل جنوب أفريقيا ح أروح آخر نقطة أرض فى القارة الأفريقية عند المحيط وح أبص بعينى عشان أشوف من بعيد القطب الجنوبى .

وطبعاً ح أحضر كل الماشات . . . ناوى أقدم طلب هنا فى اتحاد الكورة . . . اللى هنا جنب النادى الأهلى فى الزمالك . . . علشان يجيولنى تذاكر . . . وإحنا أفارقة زى بعض أكيد حيتوصوا بينا .

أنا أصلاً باسوق طول النهار . . . إنت عارف أنا باسوق حوالى ١٥ ساعة فى اليوم . . . يعنى متعود . . . مش حالاقى مشكلة إن أنا أوصل جنوب أفريقيا .

ده حلمى ولازم أنقله . . .

لم أرغب فى أن أقول له إنه لا يوجد طريق أسفلت يربط مدينة أبو سمبل آخر مدن مصر الجنوبية والسودان وإن الطريق الصاعد من طريق توشكى للسودان مغلق وإنه لا يوجد حتى خط سكة حديد متصل يربط مصر والسودان . وإنه حتى لو وصل إلى السودان فممنوع عليه أن يذهب إلى جنوب السودان إلا بتصاريح أمنية من سلطات الخرطوم لن يستطيع الحصول عليها .

وإن التاكسى القاهرى ممنوع من السفر .

نسيت أن أقول له إن قارتنا الإفريقية مجزأة، مقطعة الأوصال، مستعمرة بالكامل وإن الوحيد الذى ما زال يمكن أن يتحرك داخلها ليس بالتأكد ابنها الإفريقى ولكن السيد الأبيض صانع الأبواب الإفريقية التى لا تنحنى ولا تفتح إلا له .

ورحم الله باب «على بابا»، الذى (كان) يفتح فقط بالسهم!

* * *

كنت في مدينة أساتذة الجامعة بصفط اللين والتي تقع مباشرة خلف جامعة القاهرة بعد السكة الحديد ، يعتبر المكان نموذجاً مثالياً للسلطة العمرانية ، فصفط اللين قرية على تخومها أراض زراعية ، ونتيجة لامتداد القاهرة المتوحش نزلت على القرية المسكنة بالباراشوت عمارات عالية من الطوب الأسمنتي مستوردة من المدن تجسد القبح العمراني ، وهبط عليها بشر ليسوا منها ، وهبطت أيضاً عليها مدينة أساتذة الجامعة من كوكب الزهرة وأحاطت نفسها بسور كبير كي تمنع أهل الأرض من دخولها .

وأثناء خروجي من تلك المدينة (بالطبع اسم مدينة لا يعنى أكثر من بضع عمارات متقاربة يسكنها أهالي كوكب الزهرة) إلى صفط اللين وبعد تدقيقى المتأنى فى العمران وفى البشر اكتشفت هول الكارثة ، فالمكان مسخ حقيقى لا يمكن معرفة هويته ، ومرت من جانبي امرأة جميلة تلبس جلابية قروية ويتدلى من أذنيها قرط من المركز وأما أنفها المستطيل فهو خارج من المدينة وقدمائها تقودها إلى سوق هو الأقدر فيما رأيت فى حياتي .

ومن خلف السوق بدأت تظهر جحافل من الأطفال يخرجون من المدارس ، ظهر الفوج الأول من البنات فى المرحلة الابتدائية . . كلهن محجبات . . ثم ظهر فوج من الأولاد . . جميعهم يلبسون مرايل بنية حائلة اللون ، اخترقوني من كل جانب وكأني روح هائمة بلا جسد . شعرت بالثوتر رغم أن مرأى الأطفال يبعث فى العموم فى روجي البهجة .

ظهر لى تاكسى من المدينة ، جريت نحوه كي يتشلنى من هذه السلطة بعد أن اتسخ وجهي من بعض الطماطم . .

السائق : على فين إن شاء الله .

أنا : أى حته . . بس خرّجنى من هنا .

السائق : أطلع ناحية الجامعة .

أنا : اطلع .

لم تتحرك السيارة كما كنت آمل ، فالتريق مزدحم بعشرات سيارات الميكروباص التي تسير بدون لوحات معدنية ويقودها عفاريت الأسفلت ، وشاهدت على يميني طفل فى الخامسة يقترب من طفلة تكبره بقليل ويمسك يدها كي تساعد على اختراق الشارع المزدحم ، وكان يبدو خائفاً وجزء من مريسته البنية اللون مقطوع ، وكانت تبدو واثقة فى أنها سوف تمر وسط السيارات مع هذا الطفل فى سلام .

شعرت أنا الآخر بسلام . . وخفّت توترى من السلطة وقد بدأت أبتلع بعض خيارها .

أنا : شايف العيال حلوة إزاي .

السائق : حلوة صحيح . . لكن أهلهم مجانيين .

أنا : إزاي يعنى ؟

السائق : مجانيين إنهم يودوا عيالهم مدارس .

أنا : أmaal عايزهم يودوهم فين ؟

السائق : العيال بيروحوا مدارس وما بيتعلموش أى حاجة . .

ويفضل الأهل يكعوا دروس خصوصية فوق العشر سنين . .

ويتهى المشوار أن الأهل ما حلتهمش اللضى والعيال مش حيلاقوا أى شغلانة . . يعنى عبط فى عبط .

وبعدين تلاقى العيال دول زاحمين الشوارع على طول زى ما

أنت شايف ، عيال رايحة المدارس وعيال راجعة من المدارس . .

وبنزى وتلوث ووساخة ، دوشة قاضية .

أنا شخصيا ومعايا كام واحد من صحابى خرجنا عيالنا من

العلام بعد الابتدائية . . فلوس الدروس بنحوشها لهم ، يسجى

الواد أو البت وهما عندهم واحد وعشرين سنة ، نديهم كل

الفلوس اللى كان المفروض نديها للمدرسين الخصوصيين . .

بذمتك يا أستاذ أنى أحسن للغيل يبدأ حياته بشوية فلوس فى إيديه

ولا بعلام مالوش أى معنى ؟؟ علام ما تعلمهوش أصلاً .

أنا شخصيا بأقول لكل اللى حواليا ، ماتودوش عيالكم المدارس . . ماتودوش عيالكم المدارس . . معتبرها قضيتى الوحيدة فى حياتى .

أنا : بس أنا أهلى صرّفوا على تعليمى كل اللى معاهم وما سابوليش فلوس وقادر بالتعليم أشتغل وأعيش .

السائق : ده كان زمان . . الكلام ده كان فى الستينات النهاردة الشعار الوحيد «التجارة شطارة» ولعلوماتك ، تسعة أعشار الرزق فى التجارة مش فى حاجة تانية . .

نسب لولادنا فلوس يعملوا بها دكان صغير ولا كشك ولا يبقى معاهم مقدّم تاكسى . .

دلوقتى لا تعليم صناعى نافع ولا زراعى نافع ولا تجارى

نافع . . وماتنساش إن العيال يا عيني بيتعثموا ويبفكروا أنهم

اتعلموا بحق وحقيقى . . وهما ما بيعرفوش يفكروا الخط . .

الحاجة الوحيدة اللى بيتعلموها فى المدارس هى النشيد الوطنى ،

حلو . . بس دى حتنفعهم فى إيه ؟؟

ده موضوع اتأكدنا منه بدل المرة ميت مرة . . حاولنا نطفشه
بكل الوسائل مفيش فايده . . أما إن إحنا نسيب الشقة ونروح شقة
تانية، محتاجة لها مبلغ وقدره، مش أقل من أربع آلاف جنيه . .
أنا معايا منهم حوالى أربعة جنيه . .

(٤٤)

مراتى من أسبوع قالت لى شوف يا بن الناس أول الشهر الجاى
لو ما شفتش حل فى المصيبة اللى حلت علينا دى . . أنا ح أهيج من
البيت المسكون ده . طب أشوف حل إزاي؟ ماهى بنت القحبة
عارفة البيرو وغطاه .

أنا: وإنت عرفت مين إن البيت مسكون؟

السائق: يعنى إيه عرفنا مين؟ ده الموضوع واضح زى الشمس
فى عز النهار .

أنا: مش فاهم ياريت توضح لى أكثر؟

السائق: أقول لسعادتك . . أول هام نصحى الصبح نلاقى
رسومات على الحيطه، بنفس لون الحيطه ولكن فيه خط منشع
راسم الرسمة . . رسومات كثير ولكن فى الأغلب عيون . . عيون
كبيرة وعيون صغيرة وبعدين على آخر النهار الرسومات تختفى .
تاتى هام البيت مليون أبراص، تعمل اللى عمله تلاقى أبراص فى
كل مكان، أبراص من كل شكل ولون، ألوان حضرتك ما
شفتهاش قبل كده . . أنا مثلا إمبارح بالليل شفت برص كبير لونه
بنفسجى غامق . . عمرك شفت برص بنفسجى؟ حاجات كثير . .

الجن والعفاريت والملائكة وإخواننا اللى تحت موجودون،
فهؤلاء يعيشون فى وجدان كل مصرى بشكل أو بآخر،
فالحديث عن الجن ليس بالتأكيد خزعبلات فهو موجود فى
ديننا وتاريخنا وفى حواديتنا، فى النهاية الجن معجون فى أرواحنا
عجنة الفول المدشوش بالخضرة جوة الخلط، ولكن رغم هذه
العجنة القوية إلا أن الجن فى العموم لا يختلط بحياتنا اليومية ما
عدا فى حالات غير مفهومة لعقولنا العاجزة، وعندما يقرر الظهور
تكون الوكسة بمثل وكسة هذا السائق الذى كان يقلنى إلى مسجد
السلطان حسن، وعندما سألتنى أن أدعوه فى المسجد حكى لى
حكايته .

السائق: حضرتك مش مصدقنى ليه؟ حضرتك برضه بتصدق
الكلام اللى بيقلوه فى المدارس، ولا اللى بيقلوه فى الراديو وفى
التليفزيون، ماتصدقش . . صدق كلام الناس . . الجن موجود
معانا وعاش معانا، وأنا حظى الأغبر إنه ساكن فى الشقة اللى أنا
إتجوزت فيها .

يعنى أغرب حاجة حكاية التُّي دى . . ما بتعيش فى البيت أى
نتاية . .

أنا: إزاي؟

السائق: إحنا بنربى عصافير . . نخط عصافيرين دكر
وعصفورتين نتاية . . نصحى الصبح نلاقى العصفورتين النتاية
هربوا من القفص . . إزاي فتحوا القفص؟ وإزاي طاروا؟
ما تعرفش . طب لو القفص اتفتح الدُّكْرة ما هربوش ليه؟
ما تفهمش وبعدين دى ما حصلتش مرة . . لأ أكثر من مرة . .

وبعدين جبنا واحدة من اللى ليهم فى أمور الغيب، أول ما
دخلت علينا . . قالت البيت ده مسكون . . إحنا ما كناش إديتالها
أى فكرة . . عرفت على طول إن فيه جن عايش فى البيت . .
وبعدين اللى زوّد الطين بلة مع مراتى . . إن الشيخة قالت لنا إن
الخلفة متأخرة عشان الموضوع ده . . وإن إحنا طول ما إحنا ساكنين
فى البيت المسكون ده، مش ح نخلف أبدا . . الكلام ده كان من
شهر ومن يوميهـا ومراتى مش عاوزانى أقرب منها، بتقول لى وإيه
الفايدة يا سبعى؟ وحلفت إن أنا مش ح أقرب منها غير لما نسيب
الحرارة المسكونة اللى عايشين فيها .

أنا: طيب والشيخة ما قلتش ليه الجن ساكن معاكم فى البيت؟

السائق: لا الشيخة قالت . . البيت ده أصله بيته ومش ح
يخرج منه ولا بالطبل البلدى . . دى حتى رفضت تاخد فلوس،

حتى الشاى ما شربتوش . . قالت لمراتى إبقى قصى ضوافرك
علشان العفارىت بتطلع منها، وبعدين وشوشت مراتى فى ودانها
وراحت ماشية . . ومراتى رأسها وألف جزمة مش عايزة تقوللى
قالت لها إيه .

أنا: معقول الكلام ده؟!

السائق: كل اللى باحكيهونك ده ومش مصدقنى . . باقولك
ننام ونصحى نلاقى رسمة عين كبيرة على الحيط . . مين بقى اللى
رسمها . . أمى اللى رسمتها؟ الجن موجود وما تخلش العلام
يوط مخك واحمد ربنا إن بيتك مش مسكون .

أنا: الحمد لله .

شوارع القاهرة قبل صلاة الجمعة بحوالى الساعة تكون شبه خالية . . كنت متوجها في ذلك التوقيت الرائع إلى مدينة الرحاب لزيارة صديق ، واختار التاكسى أن يذهب عن طريق صلاح سالم مروراً بميدان عابدين ، وعند ناصية الميدان مرت فجأة كرة قدم من أمام سيارة التاكسى وانشقت الأرض عن شاب يجرى وراء الكرة دون أن يرى في الدنيا سواها ، فصدمناه . . طار الشاب بفعل الصدمة ثلاثة أمتار على الأقل . . ثم أكمل جريه وراء الكرة وكأن شيئاً لم يحدث . .

طلبت من السائق التوقف للتأكد من سلامة الشاب ، ولكن السائق رفض وأكمل سيره مسرعاً .

السائق : ما أنت شايفه ييجرى زى الجن أه .

أنا : كان لازم نأخذه المستشفى . . ممكن يبقى مش حاسس دلوقتى باللى حصل له . .

السائق : يعنى لو كان حصل له حاجة كان ح يجرى زى الغزال الشارد كده . . كانت خبطة خفيفة وربنا سلم . . وبعدين لو رحنا

المستشفى فيها سين وجيم ومش ح نخلص . . دول ما بيصدقوا يعملوا فيها القلب الرحيم ، والمصيبة إن هما هما اللي بيطلعوا عينينا في كل حاجة ، البنى آدم بالنسبة لهم مالوش أى ثمن . . ولا حتى نكلة . . إنت ما شفتش اللي حصل في العبارة ، الناس ماتت بالزوفة . . والحكومة واقفة تشجع .

الجنابة حارة والميت كلب ولا مؤاخذه . .

أنت عارف أنا بشبه البنى آدم بيايه في نظر الحكومة ؟ . .

أنا : لأ .

السائق : البنى آدم في مصر زى التراب في كاس مشرّخ . الكاس سهل يتكسر ، والتراب ح يطير في الهواء . . لا يمكن تعرف تلحه ومالوش عوزة أصلاً إنك تلمه . . لأنه شوية تراب وطار ، البنى آدم في البلد دى شوية تراب طيارة ، مالهاش سعر .

إنت عارف الناس اللي ماتت في العبارة ، كثير منهم مش عارفين يطلعولهم شهادات وفاة لغاية دلوقتى ، أوراقهم الرسمية يا عيني غرقت معاهم . . عك في عك ، البلد دى حرام والله . . حتى الفلوس اللي قالوا حيدوها لهم . . فيه كثير ماخدوش منها حاجة . . قالوا الميت حياخذ ستة وستين ألف جنيه وحت تبرعات من كل حنة ، من الخليج ومن رجال أعمال يطلع للواحد مش أقل من خمسين ألف جنيه . . راحت فين الفلوس دى ؟ ما حدش عارف . والأهالى يا عيني ولادهم راحوا وحتى الفلوس مش

عارفين ياخذوها . . وصاحب العبارة هرب طبعاً كالمعتاد على
برة .

إنت حضرتك عارف كمان إن فيه أربعة وعشرين واحد من
طاقم العبارة هربوا وماحدث عارف لهم طريق جرة . .
بيقولوا صاحب العبارة هربهم عشان ما يقولوش أسرار توديه
فى داهية . . وعشان شركة التأمين تدفع الفلوس . . عشان لو دول
اعترفوا باللى حصل . . شركة التأمين مش ح تدفع حاجة . .
مصايب كتير . . وسمعت إشاعة والله أعلم، ما أنا أحب قوى
أقول والله أعلم ما أنا بسمع الكلام ده من ناس وما أعرفش
الصدق فين والكذب فين .

أنا : سمعت إيه ؟

السائق : إن العبارة كان عليها خمسميت راكب زيادة عن
الحمولة بتاعتها . . بس ماحدث عايز يقول . . طبعاً اللي هربوا
دول عارفين كل الحاجات دى . .

أنا : وإنت عرفت المعلومات دى منين ؟

السائق : ماهو فيه واحد بلدياتى فقد ابنه يا عيني فى الحدود
دى . . ابنه كان شغال عامل بناء فى السعودية ، واهه محتاس
حوسة من سفاجا لهنا . . لهنا . . وحكى لنا اللي حصل فى
سفاجا ، كانت هرجة وبلطجة ووجع قلب ماحدث واخذ حقه فى
البلد دى .

والراجل آخرتها ماطلش حاجة وعمال يدعى على الحكومة
وعلى صاحب العبارة وعلى الدنيا الوسخة .

وبعدين حضرتك تعالى شوف فى الآخر مين اللي مات فى
العبارة ؟ العمالة الكادحة اللي رايحة السعودية تتهان علشان
القرش اللي بيطلع بالدم . . الطيران غالى عليهم فبيسترخصوا
ويركبوا العبارة . . شوية عمال غلابة يعنى . . أصل المصايب ما
بتقعش الأيام دى غير على الغلابة ، بتنقيهم واحد واحد . .
والدور والباقي علينا . . وبعد كل ده عايزنى أروح المستشفى
برجلى .

السائق : سمعت على حكاية لعيب الاتحاد؟

السائق : أيوه الاتحاد السكندري هو فيه غيره . .

كان الاتحاد مسافر يلعب ماتش فى البطولة الأفريقية وفى المطار اكتشفوا إن لعيب مزور باسبور، قبضوا عليه . . وبقية الفريق سافر . أنا بقالى أربعين سنة باسمع أخبار ، أول مرة أسمع عن لعيب ضارب باسبور بحاله . . يضرب فيزا . . ختم . . إنما كل الباسبور . . حاجة غريبة والله . .

ومن كام يوم حكاية المغنى النلى اسمه تامر حسنى زور شهادة الجيش عشان يطلع باسبور ووراه على طول المغنى النلى اسمه هيثم^(١) . . راح مزور هو راحر شهادة الجيش عشان يسافر . .

(١) لست متبعاً لم يحدث للمطربين تامر حسنى وهيثم فأنا لا أقرأ أى أخبار فنية . ولكن ما أريد قوله هنا إن الحكم القضائى النهائى هو المعيار الوحيد لاثهام إنسان ، والنتهم برىء حتى تثبت إدانته من المحكمة ، وإذا لم يصدر ضدّهما أى أحكام نهائية فهما إذن بريئان من اتهام التزوير .

وطلعوا فعلا باسبورات بالشهادات المزورة . . بس تامر مشكلته أكبر . .

أنا : ليه ؟

السائق : أصلهم اكتشفوا فى أوراقه إنه مزور كمان شهادة جامعة . . راجل باين عليه محترف والمصيبة إنه نجم كبير وأفلامه مكسرة الدنيا . . عمرك سمعت إن محمد فوزى ولا عبد الحليم زوروا باسبور . . ومين النلى ح يدافع عنهم الراجل النلى كان ماسك الزمالك .

وكمان المطربة شيرين^(١) زورت فى البطاقة وقالت إنها آنسة مع إنها مطلقة . . وغيره كثير ، التزوير فى مصر بقى عامل زى شرب الشاى . والنلى مستخبي أكثر قوى . . ده أنا ركب معايا واحد قال لى إن ممثلات كثير قوى بيوزروا فى تواريخ ميلادهم عشان لما يتجوزوا عرب من الخليج والسعودية بيانوا لسه وراور . أهه كده يبقى تزوير بجيب ريبالات على طول . يعنى دعاية رسمى بعقود مسجلة . تعرف حضرتك المشكلة جت مين ؟

أنا : مين ؟

السائق : المشكلة جت إن كل واحد معاه قرشين حاسس إنه

(١) لا أعرف المطربة شيرين وكنت أول مرة أسمع اسمها ، ولست أعرف حتى الآن إذا كانت شخصية حقيقية أم من وحي خيال السائق ، وإذا كانت شخصية حقيقية ، فالعبرة الوحيدة هى بالحكم القضائى النهائى وهى بريئة من كافة التهم حتى يصدر الحكم القضائى بشأنها .

يمكن بعمل أى حاجة بفلوسه . . هيبه الدولة راحت ، بالفلوس
أجيب مناخير الحكومة الأرض . أزور باسبور ، أغير بيانات بطاقة
أى حاجة ، رخصة تتسحب تجيلى فورا ولغاية بيتى بالفلوس .

كل حاجة مفروشة على الفرشة ومعرضة للبيع . . وكل ما
واحد يقع تلاقيه هرب برة مصر . . إزاي ؟ بالفلوس . الشهر ده
ممدوح إسماعيل هرب ، إيهاب طلعت هرب^(١) . . وغيرهم
ومفیش داعى تتكلم على الشهور اللى فاتت واللى فاتت .

وبعدين يروحوا للعيال فى المدارس يعلموهم إن القيم أهم من
الفلوس ويحفظوهم أبيات شعر عن المبادئ وإن الفلوس بتروح
وتيجى وإنما الأخلاق هى الأهم وهى أساس البنى آدم . . كلام
بيدخل فى ودانهم من هنا ويخرج من هنا ، ما هما شايفين إيه
اللى بيحصل حواليتهم . .

أنا بنتى لسه صغيرة عندها ستاشر سنة ، ده على أيامنا كان سن
الحب والآهات ونقعد نسمع أم كلثوم ، بنت الكلب بتقول لى
حب إيه وزفت إيه . أنا عايزة أتجوز واحد غنى ، بحبه ولا
مايحبوش مايهمش . المهم يبقى غنى . أقول لها إن مفیش أحلى
من الحب فى الدنيا دى . الحب هو اللى بيخلينا نعيش ، هو النفس
اللى بتتنفسه هو اللى مخلينى مستحمل أمك . . تقول لى فى الدنيا
دى مفیش أحلى من الفلوس .

(١) لم تصدر أحكام قضائية نهائية ضد ممدوح إسماعيل وإيهاب طلعت ، والثانى
قهما بريثان من أى تهم نلتصق بهما .

(٤٧)

عند دخولى التاكسى ، فوجئت أن الرجل الجالس أمامى
بجانب السائق يبكى فى صمت . كان عملاقاً أسمر بشوارب
كثيفة . وكان الهدوء هو الآخر كثيفاً كشاربته والليل فى ساعاته
الآخيرة ، وكان الصوت الوحيد صادراً من ترددات التنفس غير
المنتظمة للعملاق الباكى .

أن ترى رجلاً فى مجتمعنا يبكى هو أمر نادر الحدوث ، وأن
ترى عملاقاً صعيدياً يبكى هو أمر يمكن تسجيله فى موسوعة
جينيس للأحداث النادرة .

استمر الصمت فترة من الزمن ، ثم استكملا الحديث ونقلانى
حالة تؤثر من الذبذبات المشحونة بالتيارات الكهربائية الدائرة
بينهما .

كان صوت العملاق منكسراً وصوت السائق مليثا بالأسى ،
دار بينهما حوار كله شجون . بدأت تنجمع فى ذهنى القصة
تسريجياً كقطع البازل PUZZLE ، ولم تتضح لى الصورة كاملة إلا
بعد عودتى إلى المنزل .

العملاق سائق تاكسى من الإسكندرية جاء إلى أخوه السائق .
اليوم نفسه . لكن يفترض منه مالا ، ولكن «إيش ياخذ الريح من
البلاط» كما ردّ عليه أخوه .

أجرى العملاق ثلاث عمليات جراحية خلال السنوات السابقة
في عموده الفقري بعد تاريخ طويل في قيادة سيارات الأجرة ،
وكانت آخر عملية منذ أربعة أشهر . . وأمره الطبيب بعدم القيادة
وإلا سوف يحدث لعموده الفقري ما لا يحمد عقباه ، وخلال
الأشهر الأربعة باع العملاق كل ما يملك واقترض من كل من
حوله حتى خرج من المستشفى وبداية رحلته الطويلة مع العلاج
الطبيعى . . شرح بالتفصيل الآلام غير المحتملة للظهر ولكن
كرامته لم تسمح له بالصراخ خاصة أمام زوجته وأطفاله . .
وعندما سُدّت أمامه كل سبل الرزق . . اضطرت زوجته للعمل
خادمة عند راقصة معتزلة تفوق في بخلها الأب جراندى في رواية
أوجينى جراندى^(١) لصديقى أونوريه دوبلزاك^(٢) ، بعد أن كان
قد حلف بالإيمان المغلظة أنها لا يمكن أن تعمل وهو على قيد
الحياة .

وعليه اليوم أن يسدد شيكا بمبلغ ألف جنيه كان قد اقترضه
قبل العملية . وإذا لم يُعَد المبلغ ، فالسجن أبواه واسعة . ومن
يمكن أن يلجأ إليه فى الدنيا سوى أخيه ؟

(١) أوجينى جراندى : رواية لبلازك ، نشرها عام ١٨٣٣ .

(٢) أونوريه دوبلزاك : ١٧٩٩ - ١٨٤٠ ، وراثى فرنسى .

أما الأخ فقد أجرى هو الآخر نفس العملية منذ فترة ، ولكنه
على الأقل ما زال يعمل سائقا . ولكن المشكلة تكمن فى أن الغول
والعنقاء والخل الوفى أقرب إليه من مبلغ الألف جنيه ، وأنه فى
بدايات أقساط الشلاحة التى اتهم مقدمها ما كان يدخره لتجديد
رخصته المهنية . . وأنه لو باع زوجته فلن تأتى بهذا المبلغ . .

كان حواراً هادئاً بين أخين ، بدا لى أن الحب والإفلاس
يجمعهما ، كان حوارهما كاريئاً لدرجة ميلودرامية ، يكاد يصل
إلى الأفلام الهندية ، ولم يكن ينقصنى وأنا المتفرج غير بعض
الأغاني والرقصات الهندية ، ولا مانع من بكائية لأميثاب باتشان .
لم يشعر أطوال الحوار بوجودى وكأئننى بالفعل لست موجوداً
أو ربما كنت لابساً طاقة الإخفاء . . فحتى نزولى ودفعى للأجرة
لم يلتفت لى أحد ولم توجه لى كلمة .

كان الاثنان فى صلاة . . كل يناجى الآخر ، وكلاهما وجهها
وجهيهما للسماء عسى أن تفتح طاقة فيها وتصل توسلاتهما إلى
السميع المجيب .

والعربية قديمة ومخرمة من كل حنة والسخونية بتاعة الموتور
بتطلع على رجلى وعلى جسمى فى الصيف . . ببقى عامل زى
الكبابجى قدام أسياخ الكفتة . . الفرق إنه بيشم ريحة لحمه حلوة
وأنا باشم ريحة بنزين محروق .

* * *

(٤٨)

التفريد الأول:

السائق : أنا عامل زى السمكة والتاكسى عامل زى حوض
السمك . . السمكة عمالة : تروح وتيجى وحوض السمك سجن
صغير . تخبط فى قزاز العربية الناحية دى وبعد كده تخبط فى
القزاز الناحية الثانية .

أنا برضه بأفرد دراعى أخبط فى القزاز الناحية دى وأفرد دراعى
الثانى أخبط فى القزاز الناحية الثانية ، أنا صحيح بلف طول النهار
لكن ما باشوفش غير جوه التاكسى بس ، حدودى هى الشبايك
بتاعة عربيتى .

سجن مؤبد ونهايته القبر . .

التفريد الثانى:

زهري اتبيس على وضع القعدة دى . . أما باجى أفرد
جسمى بالليل ما بعرفش . . زهري بيوجعنى أما بفرده . .

اتعرفت فعلا من اليا فطة دى ، خاصة إن أنا كنت لسه شايق
يا فطة قبلها بيوم مكتوب عليها :

«نعم يا شريف يا مبارك ، نعم يا سيد يا شريف يا محمد يا
حسنى يا مبارك . . يالى تأييدك من الله رب العالمين وسيدنا
محمد - صلى الله عليه وسلم - يا بن أظهر نسب جدك على بن أبى
طالب وجدتك فاطمة الزهراء البتول وجدك مولانا
الحسين . . إلخ» .

دخلنا فى الخز عبات .

خرجت من الجيزة وركبت تاكسى واللافتات حوالينا من كل
جانب بتقول نعم للاستفتاء عشان نغير الدستور وتبقى تعددية ،
(فى نفس الوقت) نعم لمبارك . . الناس فعلا متلخبطة ومش
قادرين حتى يقولوا نعم لتعديل الدستور وبس ، خايفين يا عينى .
ومفيش ، مشينا شوية ولقيت يا فطة مكتوب عليها «الجنين فى بطن
أمه . . بيقول نعم لمبارك» .

أنا : إيه رأيك يا عم فى كل اليفط دى ؟

السائق : لا أحلى واحدة شفتها مكتوب عليها «نعم بالإجماع
لمحمد حسنى مبارك وابن مبارك وابن ابن مبارك» .

أنا : وتبقى ملكية جمهورية بالطعمية وإنت إيه رأيك ؟

السائق : هو مبارك ماله ومال اليفط دى ، ده الناس اللى

(٤٩)

كنت فى العتبة رايح الهرم . . قلت أركب المترو للجيزة . .
وأطلع من الجيزة آخذ تاكسى للهرم . . الدنيا كانت حر جدا كنا فى
يوليو ، وكنت لقيت فى مكتبات الأزيكية «سور الأزيكية سابقا»
مكتبة مكتبة ، علشان أشتري كتاب عن الصناعات فى مصر
الفرعونية عشان أجيبه هدية لمراتى وما لقيتوش ، نزلت المحطة
لقيت يا فطة كبيرة مكتوب عليها «مترو الأنفاق هدية مبارك لشعبه»
فعلا هدية لطيفة جدا . . وأنا اللى جاى لغاية الأزيكية عشان أوفر
قرشين . . يا ترى مبارك لقي المترو ده بكام ؟ وفى أى سوق من
أسواق فرنسا عشان يشتريه ويحبيه لشعبه ؟

حاجة تغيظ . . الحكومة عمالة تتكلم طول السنة عن التعددية
والديمقراطية السياسية ، وأول انتخابات رئاسية متعددة ، وفى
نفس الوقت واحد ما عرفش مين فى المترو يكتب لنا إن الرئيس
يمتلك أموال الدولة ويصرف منها هدايا لمجموعة تابعة لسيادته
اسمها شعبه . . تناقضات تنقط ، لازم نبليح حبوب البلاهة علشان
نقبل كل اللى بيقولوه لنا .

معلقينها، أنا بصراحة رأيت إن مبارك عداء العيب . . الراجل
 يعمل كل اللي يقدر عليه . . فعلا مالي مركزه . . وبعدين مين
 يقبل إنه يدخل انتخابات مع شوية ناس مايشترههمش بثلاثة
 أبيض . . هو رئيس الجمهورية بقاله داخل على الربع قرن . .
 وقبلها كان نائب رئيس الجمهورية . . يعني راجل فاهم تمام منصبه
 ومجربه وماليه . . عشان خاطر الديمقراطية يقبل ينزل انتخابات
 مع ناس ما عندهاش خبرة . . والله ما حد يعملها . . يعني
 السادات مثلا كان يرضى يعمل كده . . مش ممكن . . ومين اللي
 فكر في الفكرة دي . . ما هو برضه حسنى مبارك، إنت عارف
 حضرتك الراجل ده عظمتة منين؟

أنا : منين؟

السائق : إنه أصلا طيار، الطيار لازم يبقى ذكى ومصحصح
 على طول ومركز جدا . . أى غفوة . . موت على طول . . مافيش
 فرصة للغلط . . عشان كده مبارك مية مية . . مركز على طول
 وفاهم عايز يعمل إيه . . ده كفاية اللي عمله فى القاهرة . . كبارى
 إيه وأنفاق إيه . . حاجة عظيمة . . إنت عارف إننا فى التمانينات
 كانت الشوارع مقفلة أكثر من دلوقتى، وشوف بقى فيه كام عربية
 زادت عن ساعتها . . الراجل عامل شغل عظيم . . وبعد كل ده
 يقبل ينزل انتخابات مع ناس أى كلام . . والله فيه الخير . .

أنا : بس أنا اتغظت منه النهاردة لما لقيت يافطة فى المترو بتقول
 إن المترو هدية مبارك لشعبه .

السائق : طب هي دي فيها إيه ! ! . . ما هو المترو ده فكرة
 مبارك برضه ده شال من على الناس هم كبير قوى فى
 المواصلات . . إنت عارف إن أكثر من مليون واحد بيركبوا المترو
 كل يوم . . مش بأقولك مبارك ده مفيش زيه . . سيادتك قلت لى
 رايح فين؟



السائق : لا ما هو كله قسط . . كل ما يتموّن بتدفع مبلغ صغير
زيادة لغاية أما بتلاقي نفسك مخلص المبلغ كله . . أنا شخصياً
اشتريته مستعمل من تاكسى ثانى . . كان صاحبه طالع يشتغل فى
الإمارات . . وقف على بتسعميت جنيه كاش .

لم يكن الطابور قد تحرك كثيراً ووجدنا أن السائقين
مجتمعون على جانب المحطة ، تاركين سياراتهم ، منتظرين أن
تموّن السيارات داخل المحطة لكي يتقدموا بالطابور . نزلنا . أنا
والسائق - لنضم لبقية السائقين . . كانوا فى حالة ضحك جماعى
متصل .

أحد السائقين : بمناسبة أطنان الفياجرا اللي قفشوها فى الميناء
فى شحنة السيراميك ح تسمعوا الإعلان ده بكرة فى الراديو :
سيراميك بالفياجرا علشان الستات تخللى الرجالة تلحس
البلاط .

يقهقه الجميع ويرد الآخر سريعاً .
أحد السائقين : مقادير استخدام الفياجرا .
- مع بت أول مرة تشوفها . . مش محتاج .
- مع حبيبتك . . نص حباية .
- مع عشيقتك . . حباية .

- مع مراتك . . ٦ حبايات وعشرة بييرة وتلاتة ويسكى

(٥٠)

سألنى السائق : مستعجل ، أنا لازم أحط غاز ، فأجبت
بالنفي . ولكنتى لم أكن أتوقع على الإطلاق هذا الطابور الذى لا
ينتهى من السيارات فى محطة الغاز ، لم تكن هناك أى سيارة
ملاكى فى الانتظار ، سيارات تاكسى فقط من كل شكل ونوع ،
وكان الطابور ممتداً كشعبان أرقط أسود فى أبيض يبدأ من محطة
الوقود وينتهى عندنا فى الشارع ، على مسافة خمسين متراً على
الأقل من المحطة .

أما عن حركة الطابور فحدّث عن البطء ولا حرج .

أنا : إيه حكاية الغاز دى ؟

السائق : الغاز أرخص قوى من البنزين . بيقف بحوالى نص
سعر البنزين . . معانا إحنا فى التاكس بيوفر جامد ، إحنا بنمشى
على الأقل مية وخمسين كيلو فى اليوم . . وعربية ٥٠٤ زى
بتاعتى بتاكل بنزين جامد . . فرق معايا قوى .

أنا : بس أنا سمعت إن التركيب بالآلاف !

وسيجارتين حشيش وصاروخ بانجسو وربنا يسهل . .
باينفع . . يا ماينفعش !

تنطلق الضحكات إلى عنان السماء ويرد أحدهم مسرعاً قبل أن
يسبقه آخر .

أحد السائقين : صعيدي مات أبوه راح واخذ حبة فياجرا ،
قالوا له بتعمل إيه يا مجنون ، قال لهم أنا في الظرف الصعب ده
محتاج حد يقف معايا .

يرد أحد السائقين : سواق تاكسي بياخذ فياجرا كتير كتب على
موسنة بنظلوته : « احذر وقوف متكرر » .

ينفجر السائق الذي يقف بجانبى في ضحك هستيرى ، فينظر
له الجميع ويلحقه أحدهم بنكتة جديدة .

أحد السائقين : سواق تاكسي زهق من مراته كتب إعلان قال
فيه للبدل زوجة بحالة جيدة . . دواخل فابريكة . . صدر
كهربا . . وراك تيوبليس . . عاملة عشر آلاف . . ومرفوعة خمس
سنين .

يقع السائق الضاحك على الأرض من كثرة الضحك ، يقفز
فوقه آخر ويمسك شعره ويصرخ في وجهه : امسك أعصابك ، ثم
يقفان وهما يضحكان . . يتحرك مجموعة من السائقين ليتقدموا
بسياراتهم في اتجاه المحطة .

ويستكمل آخر سلسلة النكت . .

أحد السائقين : عارفين إيه أحسن هدية تحببها للمدام ؟ تذكرة
على عبارة السلام .

طيب عارفين نظرية الجواز :

قبل الجواز أنت تتكلم وهي تسمع . .

وبعد الجواز هي تتكلم وأنت تسمع . .

وبعد ثلاث سنين من الجواز أنت وهي تتكلموا وأمة لا إله إلا
الله تسمع .

تنطلق ضحكات هستيرية وتنضم إلينا دفعة جديدة من
السائقين تاركين سياراتهم في الطابور ويبدأ أحدهم في إلقاء
نكتة .

أحد السائقين : طب عرفتموا الأخبار بعد ميت سنة . . حسام
حسن ح يستلم كاس أفريقيا من الرئيس لؤي هيثم جمال
مبارك . . وشارون حالته ح تتحسن . .

قهقه الجميع وجاء دورنا لتحريك السيارة للتموين ، ونحن في
طريقنا للسيارة سمعت أحدهم يقول اسمعوا دى نكتة مصرية
جداً : فرد في غابة لقي النمر بتجرى ووراها حمار عمال يجرى
فسأله إنت بتجرى ليه ؟ قال له بيقولوا حيقبضوا على النمر ،
انفرد قال له طب وإنت مالك ؟ رد الحمار : حللنى بقعة عقبال ما
أثبت إني مش نمر .

ضحكت من قلبي وشكرت السائق على هذه العطلة، إذ إنني
لم أشارك في حالة ضحك جماعي منذ فترة طويلة . . طويلة
جداً . .

وقررت أنه كلما ضاقت بي السبل سوف أتى إلى تلك المحطة
وأشارك سائقي التاكسي ضحكاتهم العالية، المخوفة، الفارغة،
الخارجة من المعدة وليست بالتأكيد من القلب .

(٥١)

السائق: طب ح ناكل إيه؟ والله ما أنا عارف . . اللحم نار
ومش بس نار ده فيها كمان الحمة القلاعية، والسملك نارين،
كانت الفراخ هي اللي معيشانا وينطبخ على مرقته . . أنا بصراحة
مش عارف ناكل إيه؟

أنا: بيقلوا سوى الفراخ كويس على النار وفيروس إنفلونزا
الطيور يموت .

السائق: يا روح ما بعدك روح . . ح يموت إيه وأنا إيش
ضممتي، أصل حضرتك ما تتصورش إحنا عندنا إيه اللي
حصل، مصيبة، أنا ساكن في سجن يوسف عند سقارة . .
وإحنا أول منطقة في مصر كلها تهاجمها أنفلونزا الطيور قبل
الهبوجة . . عندنا أكثر من مزرعة دواجن . . مات منها آلاف .
اتصلنا بالحكومة . . كانت الظاهر لسه ما استعدادتش فقالوا لنا
مانقدرش نعمل لكم حاجة . . احرقوها . . والله ده اللي حصل
بالظبط .

أنا: وحرقتوها؟

السائق : طبعاً اليهايم عندنا بدل ما يحرقوها أو يدفنوها راحوا
واخذين كل الفراخ الميتة ورامينها فى الترععة . . غباء والله ما
شفتش قبله ولا بعده . . بس ده اللي حصل ، قال لك لسه ح
نحرق ولا لسه ح نحفر وندفن بلا وجع دماغ . .

وطلع بعدها الكلام إن المياه ملوثة ولو شربنا ح نموت
بالأنفلونزا . . ما أنت عارف بلد شائعات والناس جبانة وطبعاً أنا
أولهم .

وطول ما أنت ماشى عندنا تلاقى ريش الفراخ فى كل حنة ،
أصل لما جم يرموها الهواء طير الريش . . وبعد كده قال لك
الريش خطر . . بس ربنا سلم ما حدش جات له أنفلونزا الطيور من
نواحيننا . .

أنا : ربنا يستر .

السائق : طب سمعت لو حد جات له أنفلونزا الطيور ح يحس
بإيه .

أنا : بإيه ؟

السائق : أولاً ح يحس إنه فرخة قدام مراته ، وفى أوضة النوم
ح يحس إنه مكسور الجناح . . (يضحك) بس المصيبة إن الواحد
كده من غير أنفلونزا الطيور .

أى والله !

* * *

(٥٢)

يلم يلم يلم ، يلم يلم ، ، ثم نظر السائق للخلف ليركز
بصره فى وجهى .

السائق : إنت باين عليك راجل ابن حلال .

أنا : يا عم الله يخليك .

السائق : كل الكلام اللي قلتهولك كان فى الأونطة ولا
مؤاخذه ، لكن أنا ح أكلمك بصراحة عشان تبقى معايا فى
الصورة ، أنا لو قدرت دلوقتى أقتلك وأخذ اللي معاك ، ح أعملها
على طول ، ولو اتقبض على . . مش فارقة معايا كثير ، على الأقل
فى السجن ح ألاقى حد يأكلنى .

لم أعرف ماذا أقول له .

السائق : والله والله أنا عايش زى اللي ميت . لا ، ده الميت
أحسن منى بكثير ، أنا باشتغل ورديشين وآخر الشهر بابقى
مديون بيجى ميت جنيه ، والله يا باشا التور عايش أحسن مننا
ألف مرة .

كان السائق شابا في حوالي الخامسة والعشرين أو أقل قليلا من ذلك ، أكمل حديثه مندفعاً : حضرتك عارف العيال اللي فجرت نفسها في الحسين وفي التحرير دول ، العيال دي مية مية ، إوعى تصدق إنهم إرهابيين ، دول شوية عيال غلابة شافت المسألة رايحة فين ، يعني شافت الليلة صح ، وعرفوا إن الموت أحسن بكثير قوى من الحياة بنت القحبة اللي عايشينها دي .

أنا : (محاو لا تهدتته) مش للدرجة دي !

السائق : مش للدرجة دي ، هي هي ، إنت عارف لو الانتحار مش حرام ، كل اللي عارفهم كان زمانهم انتحروا من زمان ، العيال دي عملت حاجة صح ، عايزين يضربوا عصقورين بحجر ، قتلوا نفسهم وقالوا ندخل الجنة كمان ، مش مهم بقه أي حاجة تانية ، قصة جماعة وإسلام وجو ، كل ده هتش .

بعد صمت قليل زعق في وجهي السائق : دول عيال بؤساء ، ده حتى يا عيني ، القنبلة مش عارفين يعملوها ، فيها شوية مسامير من عند بتاع البويات باثنين ثلاثة جنيه ، جماعة إيه دي اللي مش عارفين يا عيني يعملوا أي حاجة .

أنا : لأ عارفين يعملوا ، بيدمروا الاقتصاد المصري .

السائق : (ناظراني بقرف) اقتصاد إيه يا باشا . . إحنا في مجوعة (يقصد مجاعة) وصلنا للحديدة من زمان ، مفيش حاجة تحتيها ، وبعدين الناس ما بتعملش حاجة في البلد دي غير إنها بتسرق من بعضها ، هو ده الاقتصاد .

أنا : أنا هنا على اليمين .

السائق : (بعد أن توقف بسيارته) ما تعرفش يعملوا فجورة المسامير دي إزاي ؟ أنا بيني وبينك عايز أنزل المحطة من هنا وأدخل الجنة عدل .

نزلت مسرعاً من الشاكسي فلفحت وجهي موجة ساخنة من هواء الشارع الملوث .

انتخبت، وما عندك بطاقة انتخابية وما عرفش كمان حد عنده بطاقة انتخابية، تصدق إن أنا بعد العمر الطويل ده عمري ما شفت واحد عنده بطاقة انتخابية!! إنت عندك بطاقة انتخابية؟

أنا: لا.

السائق: دول شوية عمد ورؤساء ومديرين بيلموا الفلاحين أو الموظفين بالغصب عشان ينتخبوا، وده عشان يكسبوا شوية فلوس أكثر، الموضوع سبوية في الآخر، وإنما لو عايز الصبح، الكام واحد العمى اللي بيروحوا ينتخبوا، مفيش واحد منهم رايح بمزاجه ما عدا شوية المليونيرات الحرامية اللي بيروحوا بزيبس.

أنا: باين عليك شايف الدنيا سودة شويتين.

السائق: (في غضب) وعلى الطلاق ما فيه حد من السبعين مليون مصري بيتتخب بمزاجه، بس زى ما اتفقنا انسى بتوع الملايين.

أنا: يعني الحكومة مش عاجباك؟

السائق: عاجباك إنت؟

أنا: بصراحة أنا شايف إن الدكتور نظيف راجل نظيف اليد جدا وما جالناش واحد نظيف اليد كده من زمان.

السائق: ده خواجه.

أنا: إزاي يعني؟

(٥٢)

أنا: مش ناوي تنتخب نفسك بعد تعديل الدستور وتبقى رئيس الجمهورية؟ تلاقبك عارف نص البلد من اللف فيها طول النهار. يضحك السائق ضحكة من ناء تحت أحمال البشرية وأحمال الستين عاما التي يبدو من تجاعيد وجهه أنه تخطاها.

أنا: طيب ناوي تنتخب حسنى مبارك.

السائق: (يجدية) هو ما بيعجنش... أحبه أنا ليه؟

أنا: ما بيعبكش ليه؟

السائق: (ناظر الى) إنت معاك مليون جنيه؟

أنا: (في استغراب شديد) لا.

السائق: يبقى ما بيعبكش إنت كمان، الراجل ده بيعحب بس اللي معاهم أكثر من مليون جنيه.

أنا: الحكاية مش حكاية حب، إنت مش رايح تتجوزه، إنت بتتخب الأصلح للبلد.

السائق: عشان أنتخبه لازم أكون بحبه، ده غير إن أنا عمري ما

السائق: ده كندى، وراح حلف اليمين هناك فى كندا.

أنا: ماعرفش الحكاية دى.

السائق: يا عم ما تعرفش إزاي؟ كندى، بقولك كندى،
حسنى مبارك اختار لنا رئيس حكومة كندى. بعد الانتخابات إن
شاء الله اللى ح يكسبها طبعاً حسنى مبارك، يجيب لنا إن شاء الله
واحد أمريكانى بدل الكندى وح يكون اسمه جونى ووكر.

(٥٤)

طلبت من السائق أن يقودنى إلى مبنى التلفزيون فى ماسبيرو،
تهلل وجهه وهو يسألنى ما إن كنت موظفاً بالتلفزيون وعندما
أجبتة بالنفى، لم ييأس.

السائق: بس إنت أكيد تعرف حد هناك؟

أنا: أعرف.

السائق: أصل أنا عايز ضرورى أشوف الأستاذ مفيد فوزى،
ضرورى جداً.

أنا: واضح إنها حاجة ضرورية جداً؟

السائق: دى حاجة مش علشانى، دى علشان البلد، أصل أنا
عايز أقول له إن كل يوم الصبح نص اللى بيركبوا معاً يا بوصولهم
معهد السرطان، حاجة غريبة جداً، أول ما أوصل توصيلة للمعهد
وَأَلْف لفة ولألفتين ألاقى زيون تانى رايح المعهد، واضح إن البلد
كلها عندها سرطان.

مش عارف من الهباب اللى بنشمه فى الشارع، ولأ من الأكل

اللى بتتسممه، ولأ أكيد من المبيدات اللى عمالين نرشها، إنما اللى
عايز أقوله للأستاذ مفيد إن كل يوم يجى نص الشعب المصرى
بيروح معهد السرطان، وهو بقى أكيد ح يعرف يتصرف، أكيد
يعرف الرئيس، وأكيد ح يكلمه فى الموضوع الخطير ده والرئيس بقى
أكيد ح يشوف حل للمصيبة دى.

(٥٥)

أنا بشوف فى كل واحد عنده عربية ملاكى حرامى، لص،
والله ما بيألف، بأبص فى عينيهم وبشوف إنهم شوية حرامية.

شايف البنت الغلبانة اللى واقفة هناك، إتفرج على العربية اللى
قدامنا ح تعمل إيه؟ شفت، أهى العربية حضنت والواد عمال
يحاول مع البت، أهو مشى قفاه يقمّر عيش، مش بقول لك كل
واحد عنده عربية فى البلد دى حرامى بيجرى على حاجة مش
بتاعته.

شايف العميال دول اللى واقفين، دول خارجين من معهد
السكرتارية اللى على اليمين ده، شايف العربية دى، يا دين
النبي، دى تساوى لها فوق النص مليون جنيه، واقف أه زى
اللس الوسخ بيص فى المرايا مستنى حد يقرب منه.

حاجة بقت حقيرة وتقرّف، طول ما أنا ماشى شايف العربيات
ما وراهاش حاجة غير السرقة، ما هو واحد غنى قوى مرة قال
لى: «الأغنياء بيحيكوا الفقراء كل لحظة فى حياتهم»، الواحد
يروح يشتغل عند واحد غنى يقعد تلات أسابيع طلوع دين

وبعدين يمشيه ويقول له مانتاش كويس ، ويجيب واحد تاني
يعمل فيه نفس الحكاية ، يبيحكوهم .

والمصيبة أنهم بيحاولوا يسرقوا بنات عندها ١٦ ولأ ١٧ سنة ،
ولأ البنات اللي في المعهد اللي شوفناهم بنات صغيرين يا عيني
وغلابة وحلوين ويحاولوا يتعلموا ويتنفسوا بنضافة ، ودول
عاملين زى الديابة عايزين ينهشوا في لحمهم ، والبنات يا حبة
عيني لسه في منتهى البراءة مش فاهمين الوساخة بتاعة حرامية
العربيات .

شوف العربية دي كمان ، أه ، دي جمرك السويس ، بص
حجمها قد إيه دي عاملة قد الأوتوبيس ، واقف راخر متلطع
مستنى يرمى قذارته في الشارع عندنا .

واستمر السائق طوال الطريق يوجه عيني إلى للصوص
الطريق . على حد قوله . واستمر في تحليل سبب وقوف كل
سيارة على جانب الطريق بدون ملل أو كلل ، الغريب أنني لم
أنطق بكلمة طوال الطريق منذ صعودي للتاكسي وحتى نزولي
منه ، كان مونولوج طويل حول اللصوص الأغنياء وخفت أن
أقول له إنني أمتلك سيارة .

(٥٦)

الصداع يقتلني ، نادرا ما أصاب بصداع ، كنت حتى الثلاثين
من عمري أفتخر وأكرر لكل من حولي أنني لم أشعر بصداع أبدا ،
ولت هذه الأيام وها أنا أقف في شارع محمد فريد بوسط البلد
يعتصرني الصداع .

اقترب مني تاكسي وأبطأ دون أن يتوقف فاضطرت أنا
للصراخ «عجوزة . . عجوزة» ، فتوقف سيادته علي بعد ثلاثين
مترا مني ، جريت لأخق به قبل أن يغير رأيه ويتركني ، وهو أمر
كثير الحدوث لأسباب ربانية غير مفهومة للغلابة من أمثالي ،
فتعشرت في بركة من المجارى ممتدة من تحت السيارات التي تركن
على جانب الطريق ولم ألاحظها .

المهم أنني ركبت التاكسي فكنت كالمستجير من الرمضاء بالنار ،
فقد وجدت السائق وهو شاب لم يتعد الخامسة والعشرين من
العمر ، وقد رفع صوت شريط الكاسيت إلى مستوى يفوق
المؤشرات العالمية للصداع الذي يفتك بي .

طلبت منه . بأدب جم . أن يخفض الصوت ، وجدته فجأة في

منطقة عالية من الحوار كان من المفترض أن نصل إليها بعد خمس دقائق على الأقل، يصرخ في: «يعني ده لو قرآن كنت قدرت تقول لي وطي الصوت؟».

لم أفهم في البداية العلاقة بين طلي وبين ما قاله، ثم تبينت أنه يسمع «وعظة»، ولاحظت حينئذ عددا كبيرا من صور البابا كرلس والبابا شنودة تحيط بي من كل جانب، ليعلن للجميع أنه مسيحي، لا أنكر استغرابي من سلوك السائق، فمسيحيو مصر في العموم لا يندفعون إلى مواجهات من هذا النوع، بالإضافة إلى أن كل من عرفتهم من أصدقائي المسيحيين لا يتباهون كثيرا بقيامهم بواجباتهم الدينية، فلم أجد أحدا يقول: «أنا رايح الكنيسة النهاردة»، على عكس أصدقائي المسلمين الذين لا يكتلون عن الإعلان عن أدائهم الصلاة أو الصوم: «صليت العصر، أصل أنا ما لحقتش أصلي العصر» أو «والله تعبان أصل أنا صاييم النهاردة الاثنين (أو احتمال كان الخميس)».

لم أعرف أبدا السبب وراء ذلك، هل يعود الأمر إلى طبيعة كل ديانة؟ أم يعود الأمر لكون المسيحيين أقلية في مصر، أو أنني لا أعرف لأن الصداق يمسك برأسي كما يمسك البلطجي بقميص المضروب.

فكرت أن أنسحب من الحوار، ولكنني قررت أن أرد:

أنا: أيوه... كنت ح أقول له وطي الصوت، ولمعلوماتك أنا

كل ما أدخل تاكسي وألاقيه مشغل قرآن وعمال يدرش معايا، أقوله ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٤). وأطلب منه أن يففل الكاسيت.

هو: (في عصبية أكبر وكأنه لم يسمع ما قلت) مش ح أوطي الصوت ولو مش عاجبك انزل.

أنا: (متصنعا العصبية) إش عرفك أصلا إن أنا مسلم، مكتوب على جيبتي، مش ممكن أكون مسيحي مؤمن ومصدق. وألا خلاص لازم أعلق لك صليب على صدري أو لازم الزبيبة تبقى منورة جيبتي عشان ساعاتك تقدر تصنف الركاب.

هو: حضرتك ده التاكسي بتاعى... مش ح أوطي الصوت... أنا عايز أسمع... تنزل حضرتك وألا أوصلك؟

لزمت الصمت، وأكمل هو طريقه، فكّرت أن أتحدث معه في مبدأ عدم التعسف في استعمال الحق، وأن حقه يجب أن ينتهي عندما يبدأ حق الآخرين. ولكنني تذكرت أن ما أفكر فيه هو ترهات لا معنى لها في الشارع المصري الذي يصرخ بكل أنواع الصراخ، فالميكروفونات تحاصرنا ولا أحد يستطيع فتح فمه.

انتهى وجه شريط الكاسيت وقام السائق بوضع الوجه الثاني بسرعة، نحيّم علينا الصمت للحظات ونحن لا نتحرك عند إشارة مرور أمام دار القضاء العالي، ولاحظت أن عضلات وجهه

المتشجعة بدأت في الارتخاء قليلا ، كنت أجلس في الخلف وبدأت في تأمله ، كان أصغر مما توقعت ، ربما في العشرين من العمر ، يبدو على شعره أنه لم يتعرف على مشط من أمد بعيد ، ويبدو من أدائه الصوتي أنه لم يتلق قسطا من التعليم ، محتمل أنه توقف بعد الابتدائية .

أخرجت قطعة من الشيكولاتة وقدمتها له على أمل أن تفك قليلا من التوتر ، رفضها فقلت له :

«مش أحسن من السجائر ، عقر يا عم عقر» .

أخذها على مضض .

أنا : مالك متعصب دة ليه ؟

هو : ح تعصبني ليه ؟

أنا : قول لي بس مالك ؟

اقتربنا من مطلع كوبري ٦ أكتوبر ، تدافع العديد من الواقفين قبل المطلاع ليصرخوا بوجهاتهم على أمل أن يقف لهم ، أغلق الكاسيت لكي يستمع لنداءاتهم : إمبابة - الوراق - بولاق الدكرور ، لم يقف ، وصعد على الكوبري ، كان الكوبري شديد الازدحام ، وبعد فترة طويلة من الصمت ، تنهد قائلا :

هو : لسة أخويا مكلمني دلوقتى ، ده الوحيد اللي فلاح في عيلتنا ، أخويا ده عبقرى يا أستاذ ، معيد في كلية آداب اجتماع . .

أنا : إن شاء الله خير .

هو : النهاردة الدكتور اللي بيشف على رسالته أجل المناقشة كمان مرة ، بقاله ابن القحبة بيمطوح فيه قول من كام سنة . . بصراحة مضطهده عشان مسيحي ، عاملين في كلية الآداب ربطة عشان يقفوا في وش كل واحد مسيحي .

اعتراضى على كلامه كان سيفجر طاقة غضب هائلة بداخله بالإضافة إلى أن كلامه قد يكون صحيحا ، شاهدت وعرفت بأحداث مثل هذه من قبل ، لم أعرف تماما ماذا يجب أن أقول ، قررت أن أصمت مثلى مثل جميع الصامتين في المجتمع من حولي .

موجودة في المعادى محتاج ثلاث ساعات دى في أقصى الشمال
ودى في أقصى الجنوب كنت ح أوصل بعد ما يقفلوا .

تانى يوم طلعت على التأمينات ، دخلت على الموظف قدر
التأمين وقال لى ادفع وتعالى لى تانى ، طلعت على الخزنة ما
أقول لكش على الطابور ، دفعت حوالى ٤٢٤ جنيه على الـ ٣ سنين
ورجعت له تانى ، عمل لى الإيصال وقال لى اطلع فوق امضى
واختتم وتعالى لى تانى ، طلعت فوق دخلت على الموظفة ، من
فضلك عاوز امضى وأختتم قالت لى روح عند مدام « فلانة » ،
مدام فلانة وديتنى عند مدام « فلانة » لفيت الملف التمام ، المهم
مضيت ، وقالت لى ادخل عند الرئيسة عشان تختتم فى الشقة الثانية
دخلت عند الرئيسة ، الرئيسة فى الحمام ، إن الرئيسة تظهر وتبان
وعليها الأمان ، أبدا ، قلت تلاقيها بتولد ، المهم ييجى بعد ساعة
ظهرت الرئيسة وختمت وتمام التمام . . نزلت للموظف الأولانى
وقعدت مستنى ييجى نصف ساعة ، راح باصص على الورقة وقال
كده تمام امشى . . طيب ما كان من الأول ، أمشى على طول من
بره بره . . المهم مشيت . .

وطبعاً مكانش يتفع فى نفس اليوم أعمل النقاية لأنهم طبعاً
اتجاهين معاكسين فالنقاية فى عبده باشا فى العباسية وعشان أطلع
من المعادى للعباسية حدوتة .

اليوم اللى بعده رحت رايح النقاية فى عبده باشا ، السلام

(٥٧)

بقالى أربع شهور بأفكر فى اليوم ده ، قعدت كل يوم أقول
فاضل ٥٠ يوم ، فاضل ٤٥ يوم ، كابوس أسود وببلاحتنى ، عامل
زى عملى الردى وماليش أمل فى الهروب منه ، أصل تجديد
رخصة السواقة بيكون كل ٣ سنين ، كل مرة الواحد بيمنح
بأستيكة اللى بيحصل له فى الكام يوم دول ، وبيعدوا الثلاث سنين
قوام وتلاقى نفسك مش عارف تعمل إيه ؟

المهم . . أحكيلك يا سيدى مشوار الضنا ، ما إحنا عقبال ما
نوصل شبرا أكون خلصت لك الحكاية وأهو أدينا بتسلى .

رحت مرور القاهرة فى مدينة السلام وأنا ساكن فى دار
السلام . . اللى اتنين سلام لكن عشان أوصل من بيتى للمرور
بأركب ثلاث مواصلات بتلات حروب يعنى باخذها فى أقله
ساعتين . . وصلت المرور وعرفت المطلوب ، وهو عبارة عن فيش
وتشبيه وتأمينات اجتماعية وشهادة من النقاية . . إيصالات تسديد
يعنى . . وكشف صحى . .

طبعاً عشان أوصل من المرور للتأمينات فرع البساتين ، ودى

عليكم وعليكم السلام إديته الكارنيهات القديمة، فطلب ١٠٥ ج قلت له ليه إن شاء الله ١٠٥ جنيه؟ قال لى ما هي زادت، أنت ما عرفتش... قلت له: لا والله مفيش حد قال لى أصلهم بيحبوا على الحاجات دى عشان عندى القلب بعيد عنك... قال لى على العموم هي متعلقة على الحيطه هناك أهه روح شفها؟ قلت له ماشى... رحت عشان أشوف الورقة اللى على الحيطه وجمعت الفلوس لقيتهم ٨٣ جنيه... رجعت له تانى قلت له يا عم دول ٨٣ إزاي بتقول لى ١٠٥ جنيه قال لى ما هي تم تطبيقها بأثر رجعي، لازم تدفع الزيادة على ٣ سنين اللى فاتوا... قلت له التلات سنين اللى أنا دفعتهم من تلات سنين، هز لى راسه... سألته هو فيه حاجة اسمها أثر رجعي؟ مفروض عملتم قانون يبقى فى وقته... شروح بإيده: هو ده النظام... ح تدفع ولا لا؟

ما باليد حيلة ح أدفع طبعاً... دفعت بس كنت مزنون فى سؤال:

- ممكن أسألك سؤال بأمانة كده؟

- اتفضل.

- إحنا مستفيدين إيه بالفلوس اللى بندفعها دى؟

- ولا حاجة...

- بتنتهى البساطة بتقولها فى وشى، بارك الله فيك.

المهم اللى لفت نظرى واحد تانى كان بيدفع النقابة ويسأل ليه ومش ليه قالوا له صندوق زمالة... قال لهم أنا عاوز أدفع النقابة بس، أنا مش عاوز حد يمشى فى جنازتى لما أموت، حد شريكى... مش عايز أدفع صندوق الزمالة... المهم مشيت والخناقة والعة وما عرفتش إيه اللى تم مع الراجل.

إوعى تكون نمت متى... لا... شكلك لسه مصحصح، أكمل لك يا سيدى، بعدها بيوم طلعت على الفيش والتشبيه تبع سكتى فى قسم البساتين... المهم رحت القسم، شحططة وعذاب... ليه؟ أحكيلك!

بعد ما وقفت فى طابور طويل قال لى الدفعة هات لى طابع شرطة، دخلت عشان أجيب طابع الشرطة قالوا لى:

- لأ روح قسم المعادى أو الخليفة.

- اشمعنى؟ هناك الطابع شكله أحلى؟

- لأ يا خفيف، هناك فيه طابع شرطة وهنا مفيش.

- يعنى إيه مش هنا قسم برضه إزاي هنا مفيش؟ يعنى عايزنى أروح لغاية المعادى؟

- من فضلك متعطلناش، وسع، اللى بعده.

المهم أخذت تاكسى رايح جاي على قسم المعادى ودفعت لى ١٢ جنيه، عشان أجيب طابع شرطة بـ ٣ جنيه، ورجعت تانى

عشان أقف الطابور من أوله . . كان عذاب عن حق . المهم الكلام ده كان يوم الخميس قال لى تعالى يوم السبت استلم ، رحت يوم السبت بدرى عشان استلم على طول ، طبعا أحلام ، انتظرت بره ، الباشوات بيغفطروا فول ، الورق لسه ما جاش ، آخرتها أخذت الفيش وما عرفتش أروح المرور فى نفس اليوم ، خراب بيوت وصاحب التاكسى ح يجيب سواق غيرى .

تانى يوم رحت على المرور من دار السلام لمدينة السلام متسلح بكل المعارك اللى عملتها وأوراقى فى جيبى ، قالوا لى الكومسيون الطبى . . طلعت على الكومسيون الطبى لاقيت داس واقفة بيعيخوا شهادات طبية «أيوه . . أيوه حد عاوز شهادات ، حد عاوز شهادات» سماسة يعنى . . المهم أخذت الورقة منه وسألته بكام؟ قال ٢ جنيه . . معدنى بالصدفة واحد فى الشارع ، قال لى يا عم دا فوق بيدوها ببلاش ، السماسة عملوا تاتش مع الراجل اللى قال لى ، جه الراجل اللى باع لى عشان ما ينحرجش قال لى يا عم لو رجعت بتاعنى . . هاتها وح أديك حسابها .

طلعت فوق على الشباك طلعت الصورة من على الورقة اللى اشتريتها بـ ٢ جنيه ، سأله إنت مش عاوز الورقة دى؟ قال لى لا ، قلت له طيب هاتها . . أخذتها ونزلت للراجل اللى بيع بيع وقلت له : قد القول؟ قال لى عندي وخدت منه الـ ٢ جنيه .

المهم حددنا ميعاد الكومسيون . . كنت أنا عامله يوم السبت قالوا تعالى الثلاثاء ، قلت انتهزها فرصة وبالمرة أعمل شهادة المخالفات عشان ح تطلب منى ح تطلب منى ، وبالفعل عملت شهادة المخالفات ولاقيت العالم اللى ملهاش شغلة ولا مشغلة بره .

- أيوه يا بيه نعمل لك شهادة مخالفات؟

- ح تتكلف كام يا جميل؟

- ١٠ جنيه ، ٥ جنيه بياخذها جوه و ٥ مرزقة .

- يعنى إيه مرزقة يالا .

- رزق من عند ربنا ، وشقانا وتعبنا

- طيب والنبي لو لاقيت مرزقة جنب منك ابقى انده لى كلنا محتاجين مرزقة .

- ح تقف فى الطابور وتبهدل ومش حتعرف تخلص مع الناس اللى جوه .

- أنا ما ورايش حاجة ما هو يوم بايظ بايظ ، أنا مستنى ميعاد الكومسيون .

سببته ووقفت فى الطابور ، طبعا خللنا ، اشتريت الورقة بـ ٥ جنيه وقدمتها للمرور ، وأخذته منى ٥ جنيه برضه فردة ، بالرغم إن ما كانش فيه مخالفات ، لكن هما لازم ياخدوا فلوس يسموها

معوونة شتاء أو معوونة صيف أو أى حاجة، وقفت حوالى ساعتين وطبعاً مفيش لا مظلة ولا أى حاجة اتلسعنا فى الشمس لغاية ما قلنا يا كفى، وبعدين نادوا علينا فى الميكروفون واستلمتها ورحت ماشى. كان يوم تعب.

يا أستاذ إنت ثمت؟ إصحى. كل ده من شوية كلام، أمال لو كنت معايا كان حصلك إيه؟ حاضر ح أكمل ما أنت واضح إنه عجبك النوم على صوتى.

استنيت ليوم الثلاثاء، مش عايز أحكى لك عن الزحمة، طواير بطول المصارين، وقفت فى طابور زى التعبان والراجل كان واقف عمال يزعق: «ياللا كل واحد يستعد ويصبح علينا»، طبعاً يصبح علينا دى، يعنى أى واحد يدفع له اللى فيه القسمة أنا دفعت جنيه. . . ودخلت الحمد لله وعملت الفيش ودخلنا عند الدكتورة نكشف أعصاب ونظر. . . وحصل موقف بالنسبة للنظارة غريب قوى، السواق اللى قبللى على طول كان بيحدد رخصته، كانت متتهية من ٦ سنين تقريبا. . . وعمال يقول لهم أنا عاوز أكشف بالنضارة، الدكتورة ما رضيتش، قالت له لأ شوف المرور ح يقولك إيه الأول، إنت بقالك ٦ سنين ما جددتش وصورتك فى الرخصة من غير نضارة، الراجل قال لهم طيب أصرف منين؟ وأعيش إزاي؟ المهم قالت له اكشف من غير نضارة قال لهم مش ح أشوف حاجة قالت له والله اسأل فى المرور، الراجل خرج بيصرخ، دخلت أنا بعد منه وبطنى سايبه، ماسك النضارة فى

إيدى، وإيدى بترعش، كنت لسه عاملها من ييجى أسبوع عشان الكشف، قلت لها دلوقتى الصورة من غير نضارة. . . قالت لى لأ حضرتك اتفضل إنت البس النضارة عادى. . . وراحت قايلة بعلو صوتها: «أهه شفتكم بقى إن إحنا مش بنعقدوها مع الناس إزاي، أهه راجل قديم ورخصته مانتتهش وبيجدد عادى وح نكتب فى الكشف بالنضارة».

طبعاً أنا حالتى زى اللى قبللى بالظبط، بس ما تفهمش، المهم كشفت بالنضارة وتمام التمام، أخذت فى الفيلم ده بتاع ثلاث ساعات من الزحام المتصل وقالوا لى تعالى المرور بعد يومين.

رحت يوم الخميس، الشمس شدة حيلها، قلت حلو الصلعة حتشوى، أخذت الطابور من أوله لآخره وبعدين الست قالت لى روح ادفع فى الحزنة رسم تصوير الكمبيوتر. . . طلع الكمبيوتر بايظ، لكن دفعنا برضه تصوير الكمبيوتر. . . ورجعت عدت للطابور تانى من أوله، ولما وصلت، قالت لى عاوزين دمغات سبت الطابور ورحت أجيب دمغات، ورجعت عدت للطابور تالت من أوله، وكل ده ولا فيه حاجز للشمس ولا أى حاجة وبقيت سعادتك تقدر تقلى بيض على صلعتى. . . المهم قدمت الورق للموظفة بصت عليه وقالت لى خلاص يا أستاذ كده تمام انتظر لغاية ما تسمع اسمك عشان الرخصة، بس الكمبيوتر عطلان، إنتم ح تاخده تصريح بس. . . قلت لها يا ستى هاتى أى حاجة إن شا الله تكتبوا الرخصة على ورقة لحمة المهم حاجة تمشى

بيها في الشارع لو حد عارضنا نطلعها له، أخذت بعضى واستنيت ييجى ساعتين إن حد ينده اسمى ما فيش والساعة قربت على ٢ بعد الظهر والموظفين خلاص ح يمشوا.

كنا اتنين اللى فاضلين ما حدش نده عليهم، كان اسمه نادر، سواق مليون كده وحُبُوب، رحنا نسأل في الشباك فوجئنا إن الملف بتاعنا مش لاقينه. طَبَّق نادر إيده باللى فيه النصيب وقال لها حاولي تعملي لنا ملف بديل ولا ملحق، أى حاجة اتصرفي. حطت الفلوس في الشنطة، وعملت ملفين وقالت ده تصريح لمدة ثلاثة شهور، لو ما لقيناكش الملف حتضطروا تجيبوا صور من الشهادة بتاع المؤهل والميلاد والكلام ده كله. مسكت التصريح أبو ٣ شهور وقريت سورة الفيل، ما كنتش مصدق نفسي.

وأنا نايم بأفضل أخرف، ح يلاقوا الملف؟ الكمبيوتر ح يتصلح؟ ح آخذ الرخصة؟ كابوس ومش عايز يخلص، عندك أى فكرة هما بيعملوا فينا كده ليه؟

(٥٨)

رمضان.. قبل مدفع الإفطار بقليل.. وأنا أحمل لوحة كبيرة.. وأنتظر أن يظهر لى تاكسى ولو من السماء.. فالمدفع بعد حوالي عشر دقائق.. ومن الصعب إيجاد تاكسى في ذلك التوقيت، ولكن العناية الإلهية أرسلت لى ملاكا في ليلة القدر.. كان بالفعل ملاكا أسود بأجنحة سوداء قادما من الجنوب الأسود، من أجمل بقاع مصر، أسوان، كان ذا قلب أسود^(١) لون النقاء والأصالة والجمال.

السائق: اللوحة كبيرة قوى.. مش ح تيجي على الكنبه اللى ورا.. تحب نثبتها على الشبكة؟

أنا: مفيش وقت عشان نلحق الفطار.

السائق: مش ح يحصل حاجة لو تأخرنا كام دقيقة.

ونزل الملاك الأسود يثبت اللوحة على سقف السيارة وبعد

(١) أرى أنه من الممكن استخدام صفة الأسود للإشارة إلى النقاء والجمال.

تثبيتها، تحركنا بهدوء ودون تعجل . كان رجلا فى أواخر
الخمسينات . . مريح الملامح . . عذب الصوت .

السائق : حضرتك رسام؟

أنا : لا والله بس كنت عند صديقة رسامة .

السائق : رسامة بورترية ولا لاندسكيب .

أنا : والله ما أنا عارف بالضبط . . ده سؤال متخصص
قوى . . إنت رسام ولا إيه؟

السائق : كنت بحب الرسم جدا . . آه كنت بارسم .

أنا : كنت !! . . وليه سبت الرسم؟

السائق : ياه . . أنا سبت حاجات كتير قوى . . طول ما أنت
ماشى بتسيب حاجات وراك وعشان ترجع تانى مستحيل . .
العقارب بتتحرك لقدام بس .

أنا : وسبت الرسم وبعدين؟

السائق : رحلة العمر طويلة وأنت بتجرب فيها . . جريرت
كتير، سافرت بره وجوه . . رحت أسبانيا وألمانيا وفرنسا . .
وقعدت فى فرنسا شوية . . كنت شغال ساعى فى مكتب
مصرى . . وهناك يوم الأحد كنت بروح متحف اللوفر . . ماهو
الأحد الدخول ببلاش، الثقافة للجميع . . وكنت أقعد طول
النهار أتمتع، كنت بحب قوى لوحة لدافيد بتاعة تتويج نابليون . .

فيها تفاصيل مش عادية وفيها شغل إضاءة جميل . لوحة حجمها
كبير قوى حوالى ١٠ فى ٦ متر رسمها سنة ١٨٠٥ ، وزى ما إنت
شايف كملت جرى وأنا أهو بوصل حضرتك .

أنا : لو بتحب الرسم للدرجة دى ، لازم ترسم .

السائق : أنا بحب حاجات كتير قوى . أنا مضيع كل فلوسى
على هواياتى . . بشتغل على التاكسى كام ساعة وباقعد بقية اليوم
فى بيتى ما بتحركش منه . . هو العش اللي أنا طلعت بيه من
الدنيا . . بحاول يبقى عش مريح . . أنا ساكن فى دور أرضى
فى القطامية عندى جنية قدام البيت . . دى الجنية اللي اعتبرتها
بتاعتى ، باشتغل فيها كل يوم . . زارع مسك الليل ولبلاب
ودفونباخيا وجهنمية . . وزارع كمان هبسكس بزهره حمراء . .
دى بتقفل بالنهار وتفتح بالليل . وأنا كمان غاوى عصافير ،
عندى قفص كبير فيه ييجى عشرين عصفورة . . لسه مراتى
متخافه معايا خناقة كبيرة قوى إمبارح عشان اشتريت جوز
عصافير بميتين وخمسين جنيه . . دى عصافير جاية من البرازيل .
جميلة جدا ورقيقة جدا . بس ما تتكاثرش فى مصر .

إزاي وإزاي أدفع المبلغ ده كله فى جوز عصافير .

وعندى كمان أحواض سمك عندى فانتيل وجوبى .

وعامل قاعدة عربى على الأرض وحواليا حوض السمك
والعصافير ، وقدامى من الشباك باشوف الجنية . . بأحسن إننى فى

أنا : إيه الجمال ده كله !

السائق : الله يكرمك . . تعرف حضرتك وأنا فى بيتى بابقى خارج المكان وخارج الزمان . . عيني على السمك وودنى مع زقزقة العصافير وبشم فى الليل ريحة مسك الليل . . لازم تشرفنى مرة بزيارة .

تحدث معى عن الزرع والفن والسمك والعصافير والجمال فكان موسوعة فى كل موضوع . . من أين أتى بكل هذه المعارف؟ اشتكى لى من ابنه الذى يرغب فى الحصول على كل شىء من دون أن يبذل أى مجهود . . اشتكى لى من جهله وتذكر كيف كان هو وزملائه يذهبون كل ليلة لدروس تقوية فى مجال من المجالات . . اشتكى لى من الزمن الذى رسم ابنه على هذه الصورة .

ذلك الملاك الأسود ترك لى فى النهاية طعم السكر فى حلقى ، ورائحة مسك الليل فى روحي ، وجعلنى لأول مرة منذ زمن أفطر بتمهل ودون استعجال متأملاً كل شىء حولى . .

وجعلنى فى النهاية أحاول أن أجعل منزلى عشاً كالذى وصفه .

ولكن من أين لى بأجنحة كأجنحته؟

قالوا عن الكتاب

هذا الكتاب/ الدراسة/ المونولوج الدرامى يصعب تصنيفه، إذ إنه ينتمى إلى نوع أدبى قديم جديد. فهو يقدم شخصيات إنسانية مركبة، ويكشف كثيراً من أبعادها، شأنه فى هذا شأن أى عمل أدبى عظيم. ولكن المؤلف بدلاً من أن يخبرنا عن هذه الشخصيات بشكل مباشر، يهين لها المسرح، ويتركها تتدفق بلغة كثيفة مشحونة بالمعنى والدلالة. والمسرح هنا هو التاكسى، أى مسرح متحرك، منفتح على القاهرة بأسرها، ولكنه فى ذات الوقت حيز خاص يوجد بداخله السائق/ البطل الذى يتحدث عن آلامه وآماله وعن أحلامه وإحباطاته، ويجلس إلى جواره الراكب/ المؤلف الذى يراقب ولكننا لا نسمع صوته إلا لما .

هذا عمل أقل ما يوصف به أنه عمل إبداعى أصيل، ومتعة فكرية حقيقية.

د. عبد الوهاب المسيرى